مَضَاضَةُ الغَبْنِ بَينَ المُتَنَبّي وَشُعَرَاءِ الأَنْدَلُسِ

د . مروة شحاته محمود الشقرفي
مدرس الأدب العربيّ
قسم اللغة العربيَّة وآدابها واللغات الشرقيَّة وآدابها
كليَّة الآداب – جامعة دمنهور

إصدار نوفمبر لسنة 2015
شعبة النشر والخدمات المعلوماتية

المُلَخَّص

يُعْنَى هذه البحث برصد أثر مَضَاضَة الغَبْن في المُتَنَبِّي وشعراء الأندلس المُعَاصِرِينَ له واللاحقينَ به ، بوصفها ملمحًا بارزًا تَجَلَّى – بوضوحٍ – لديهما .

كما يهدف إلى دراسة أسباب هذا الإحساس البغيض بالظُّلْم ، الذي ينتابُ الرجلَ الفاضلَ الكريمَ ؛ فيجعله يتقلب على جَمْرِ الغَضَا ، وقد ذاق المُتَنَبِّي هذا الإحساس وعَرَفَ مرارته ، ووصفه مِرَارًا في شعره ، كما ذاقه كثيرٌ من شعراء الأندلس – مثل : جَعْفَر المُصْحَفِيّ ، ابن دَرَّاج القَسْطَلِيّ ، أبو عامر بن شُهَيد ، ابن حَزْم ، ابن زَيدُون ، المُعْتَمِد بن عباد ، ابن الخطيب ، وغيرهم – الذين تَبَدَّلَ بهم الحال من النعيم والتَّرَف إلى البُؤْس والضنك ؛ فَعَرَفُوا – من كَثَبٍ – مَضَاضَة الغَبْن ، وعَبَّرُوا عنها .

وقد كانت الأشعار التي قالها شعراء الأندلس في وصف مَضَاضَة الغَبْن تلتقي مع شعر المُتَنَبِّي ، وتحذو حذوه ، وتُقَلِّدُهُ في كثيرٍ من الأحيان .

وترجع أهمية هذا البحث إلى كثرة هذه النصوص ، وتنوُّعها ، وما تُثِيرُهُ من قضايا في مجالاتٍ شَتَّى . وهذه الدراسة تُحَقِّق – ضمنًا – مبدأ التأثير والتأثُّر بين الشعر المشرقيّ والأندلسيّ ، وتدور في فَلَكِه .

ويرصد البحث عددًا من وجوه التشابُه بين الاثنين ، ذلك التشابُه الذي لا يمكن أن يقع بمحض الصدفة ، ويؤكد – في الوقت نفسه – مدى انفتاح الشعر الأندلسيّ على الشعر المشرقيّ ، وإفادته منه .

وقد تَضَمَّنَ البحثُ تمهيدًا وثلاثة مباحث وخاتمة ، ورَصَدَ التمهيد أثر المُتَنَبِّي في شعراء الأندلس ، وتناول المبحث الأول : أسباب مَضَاضَة الغَبْن ، وعَالَجَ المبحث الثاني : أثر مَضَاضَة الغَبْن ، ورصد المبحث الثالث : الثُّنَائِيَّات الضِّدِّيَّة في شعر مَضَاضَة الغَبْن .

وتتعدّد قراءات النص الأدبيّ بحسب طبيعة القارئ ، وثقافته ، واتجاهاته الفكريَّة ؛ وبتَعَدُّد القراءة تتعدد معاني النص ، وقد استعنتُ بالمنهج الوصفيّ التحليلي ؛ لتوضيح ما في النصوص من قيم جماليَّة .

مُقَدِّمَة

يُوَاجِهُ الفردُ في مجالات الحياة أَحْدَاثًا مثيرة للشعور بالضغط النفسيّ ، تَضُمُّ خبراتٍ مؤلمة غيرَ مرغوبٍ فيها ، وتنطوي على كثير من مصادر التوتر ، وعوامل الخطر والتهديد ، وتفرض عليه متطلبات فسيولوجيَّة أو اجتماعيَّة أو نفسيَّة ، وتُؤَثِّر في جميع جوانب الشخصيَّة ، وقد تدفع المرءَ إلى تغيير نمط سلوكه .

وقد وُجِدَتْ الشَّكْوَى مع الإنسان أينما كان ، وتَعَدَّدَتْ مقاصدُها ؛ وَفْقًا للأحوال النفسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والفكريَّة التي يَمُرُّ بها الشاكي ؛ فتجعله يرى – رَأْيَ العين – مدى التفاوُت بين فردٍ وآخر في كثير من جوانب الحياة ، دون أن يعرفَ مُبَرِّرًا عَقْلِيًّا أو مَنْطِقِيًّا لذلك ؛ فيقف مُتَحَيِّرًا – لأنَّ أعجبَ الأشياء ما لا يُعْرَف سببه – وتمتلئ نَفْسُهُ غَمًّا ، وتلتبس عليه أمورُه ، ويَجْأَر بالشكوى من أَلَمِ الرَّزِيَّة وفاجعِ المُصِيبة ؛ فقد كانت الصدمة المُفَاجِئَة قاسية شديدة الوقع ، واشتدت به المِحْنَة وأنهكته ، واستبدَّ به الشعور بالظُّلم والحرمان والاختناق ، حين خَابَ تَوَقُّعه ، وبَاءَ بِالخُسْرَانِ المُبِين .

ويَشْعُرُ الفردُ مِنْ جَرَّاء هذا الإحباط المُفَاجِئ – في تحقيق طموحه مع شدة الرغبة فيه والتعلُّق به والتهيُّؤ للوصول إليه – بالخيبة والحسرة الشديدة ؛ فَإِنَّ شَرَّ مَا رَامَ امْرُؤٌ مَا لَمْ يَنَلْ ، وعندئذٍ لا يَجِدُ أمامَهُ إلا البكاء والاستنكار .

ويَرْسَخُ في نفسه – إثر ذلك – اعتقادٌ بِأَنَّ هُنَاك انفصالاً بين ما يَبْذُلُهُ مِنْ جهد وما يتمتع به من قدرة من جهة ، وما يُحَصِّلُهُ مِنْ نتيجة مِنْ جهةٍ أخرى ؛ مِمَّا يجَعَلهُ يعيش في حالة انكسار النشاط ، وانطواء الانبساط ؛ فقد تَجَرَّعَ مرارة الخيبة بعد أن رَأَى وَمِيضَ الأَمَلِ ، وذاق حسرة إخفاق الرجاء – في الظَّفَر بما كان يَأْمُلُ – بعد أن لَمَعَ بَرِيقُ الطَّمَعِ ؛ فهو راغبٌ محروم ؛ مِمَّا أورثه السُّخْط ؛ حتى كاد يُجَنُّ حُزْنًا ويَأْسًا ! ويَمُوتُ حَسْرَةً وكَمَدًا ، وهو يائسٌ ؛ لأنه يَظُنُّ أنه قام – على أكمل وَجْه – بكلِّ ما ينبغي عليه أن يفعله ، وعلى الرغم من ذلك كانت مواهبُهُ وبالاً عليه ؛ فالقضية – في نظره – ليست جهدًا وعملاً ، وإنما أقدارٌ وحظوظ ؛ فإنَّ الأمورَ تجري بمقادير ، يُدِيرُهَا في العُلوِّ مُدِيرٌ ؛ فالنجاح والفشل – وَفْقًا لمنطق العبث – ليسا سوى صُدْفَةٍ عابرة .

وجعلت هذه الصفعة المُوجِعَة ، أو الطعنة الدامية ، قلبه يحترق من شدة الألم وقسوته ؛ ومن أجل ذلك سَيطَرَ عليه شعور الذهول والدهشة في آنٍ ؛ فَوَقَفَ مشدوهًا

عاجزًا عن الفعل ، ولا يعرفُ مَضَاضَة الغَبْن – وما يَنْجُمُ عنها من بلاء – إلاَّ مَنْ يُعَانِيهَا .

وقد ذاق المُتَنَبّي هذا الإحساس ، وعَرَفَ مرارته ، ووصفه مرارًا في شعره ، وشاركه كثيرٌ من شعراء الأندلس – الذين تَبَدَّلَ بهم الحال من النعيم والتَّرَف إلى البؤس والضنك – هذا الشعور ، وعَبَّرُوا عنه أصدق تعبير ، وكان شعرُه نُصْبَ أعينهم ينهلون من مَعِينه ، ويقتبسون منه ، ويُقَلِّدُونه في كثير من الأحيان ؛ فقد كان وَلَعُ الأندلسيين بشعر المُتَنَبّي عظيمًا ؛ لِمَا له من مكانةٍ سامية في نفوسهم .

أهداف البحث :

يُعْنَى هذه البحث برصد أثر مَضَاضَة الغَبْن في المُتَنَبّي وشعراء الأندلس المعاصرين له واللاحقين به ، بوصفها ملمحًا بارزًا تَجَلَّى – بوضوحٍ – لديهما ، وكان له كبير الأثر في سُلُوكِهما وشعرهما .

وهناك دراسات كثيرة تناولت أثر المُتَنَبّي في شعراء الأندلس ، نذكر منها على سبيل المثال : كتاب (مع شعراء الأندلس والمتنبي ؛ سيرٌ ودراسات) لإميليو غَرْسِيَة غُومِس (Emilio Garcia Gómez) [1] ، وكتاب (أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة) للدكتور محمد بن شريفة ، ودار الحديث في الفصل الثاني عن (أبو الطيب في أدب الأندلسيين والمغاربة) ، وتناولت هذه الدراسة : الأسانيد والشروح والآثار النقدية والمعارضات وغيرها من الموضوعات المتعلقة بالمُتَنَبّي في الأندلس والمغرب [2] .

وكتاب (الحوار الأدبيّ بين المشرق والأندلس ؛ المُتَنَبّي والمَعَرِيّ نموذجين) للدكتور أيمن محمد ميدان ؛ ودار الحديث – في المبحث الأول من الكتاب – حول (المُتَنَبّي ومترسلو الأندلس في القرن الخامس الهجريّ) ، وعَرَضَ عناية الكُتَّاب الأندلسيينَ بشعر أبي الطيب عبر مراحله الفنيَّة المختلفة ، وآليات توظيفه ؛ إذ راحوا يتوسلون به تضمينًا وحلاً لمعقوده حلاً تَأَرْجَحَ بين الإبهام والوضوح ، معتمدين عليه إيضاحًا لمعنى ، أو تدعيمًا لرأي ؛ فَهَيمَنَ على جُلّ فنون القول لديهم [3].

ولم تُخَصَّصْ دراسة مستقلة منفصلة – فيما أعلم – تتناول (مَضَاضَة الغَبْن بين المُتَنَبّي وشُعَرَاء الأندلس) ، وسوف أعرض أسباب هذا الإحساس المُمِضّ بالغَبْن ، وآثاره المختلفة ، وموقف المُتَنَبّي وشعراء الأندلس منه ، وأثره البالغ فيهم ، وكيف عَبَّرُوا عنه ؟ وهل استطاعوا أن ينقلوا مشاعرهم بصدق ؟

وهذه الدراسة تُحَقِّق – ضمنًا – مبدأ التأثير والتأثُّر بين الشعر المشرقيّ والأندلسيّ ، وتدور في فَلَكِه ، وترصد عددًا من وجوه التشابُه بين المُتَنَبِّي وشعراء الأندلس ، ذلك التشابُه الذي لا يمكن أن يقع بمحض الصدفة ، ويؤكد – في الوقت نفسه – مدى انفتاح الشعر الأندلسيّ على الشعر المشرقيّ ، وإفادته منه ، ويُقَرِّرُ – بما لا يَدَعُ مجالاً للشك – عُمْق الصلات الثقافيَّة الوثيقة التي رَبَطَتْ بين المشرق والأندلس .

وترجع أهمية هذا البحث إلى كثرة هذه النصوص ، وتنوُّعها ، وما تُثِيرُهُ من قضايا في مجالاتٍ شَتَّى .

مَنْهَج البَحْث :

تتعدّد قراءات النص الأدبيّ بحسب طبيعة القارئ ، وثقافته ، واتجاهاته الفكريَّة ؛ وبتَعَدُّد القراءة تتعدَّد معاني النص ، وقد استعنتُ بالمنهج الوصفيّ التحليليّ ؛ لتوضيح ما في النصوص من قيم جماليَّة .

وقد تَضَمَّنَ البحثُ تمهيدًا وثلاثة مباحث وخاتمة ، ورَصَدَ التمهيد أثر المُتَنَبِّي في شعراء الأندلس ، وتناول المبحث الأول : أسباب مَضَاضَة الغَبْن ، وعَالَجَ المبحث الثاني : أثر مَضَاضَة الغَبْن ، ورَصَدَ المبحث الثالث : الثُّنَائِيَّات الضِّدِّيَّة في شعر مَضَاضَة الغَبْن .

تمهيد :

أثر المُتَنَبّي فِي شُعَرَاءِ الأَنْدَلُسِ :

ذاع شعر المُتَنَبّي (ت354هـ) على ألسنة الناس – في عصره ، وبعد عصره – فقد جاب الآفاق ، وسارت به الرُّكْبَان مَشْرِقًا ومَغْرِبًا : (الطويل)

فَشَرَّقَ حَتَّى لَيسَ لِلشَّرْقِ مَشْرِقٌ وَغَرَّبَ حَتَّى لَيسَ لِلغَرْبِ مَغْرِبُ [4]

وكأنه شاعر كُلّ أوان ؛ فقد كان شعرُهُ الشمس ، والدنيا فَلَك [5] ، وقد شُغِلَ الناس قديمًا وحديثًا بشعره ، وكَثُرَ الخِلافُ حَولَهُ ؛ ما ذاك إلا لأنَّ شِعْرَهُ – بِحَقّ – خليقٌ بالإعجاب ، يكشف عن فَهْمِهِ العميق لبواطن النفس البشريَّة ، وبواعث السُّلُوك الإنسانيّ ، وحقائق الحياة ، وكان الجميع يتساءلون في حَسْرَةٍ مريرة : كيف السبيلُ إلى إخمادِ ذكره ؟ فلا يستطيعون لذلك سبيلاً .

وقد عُرِفَ شِعْر المُتَنَبّي في الأندلس في حياته [6] ؛ فقد استشهد به الحَكَم المُسْتَنْصِر بالله الأُمَوِيّ (ت366هـ) ، ووُجِدَ صَدَاهُ عند شاعر قريب من زمن المُتَنَبّي هو أحمد بن فرج الجَيَّانِيّ (ت366هـ) [7] .

وقد عَانَى الغرب الإسلاميّ – مثلما قَاسَى المشرق العربيّ – من سلطان شعر المُتَنَبّي ، وقد وُجِدَ شرحٌ لشعره منسوبًا للأديب اللغويّ أبي عبد الله محمد بن أبان القُرْطُبِيّ (ت354هـ) ، وهي السنة التي تُوُفّيَ فيها المُتَنَبّي [8].

وقد سُوِّدَتْ في شعره آلاف الصفحات ، وشرح ديوانَه – الذي حَظِيَ بحفاوة كبيرة لم يَلْقَها ديوان شعر جاهلي أو إسلامي – كبارُ العلماء والشعراء ، نَذْكُر منهم : ابن الأفليلي (ت441هـ) الذي شرح الشعر الذي قاله المُتَنَبّي من أول السيفيات إلى آخر حياته ، وابن سِيدَه المُرْسِيّ (ت458هـ) ، والأعلم الشَّنْتَمِرِيّ (ت476هـ) الذي شرح شعر الصِّبَا الذي قاله المُتَنَبّي .

فقد كان – عندهم – بمنزلة النموذج المُحْتَذَى ؛ فكثيرٌ منهم عارض أشعاره ، وضَمَّنَ شعره شطرًا أو بيتًا من شعر المُتَنَبّي ، واقتبس ألفاظه ، ومعانيه ، وتراكيبه ، وحَفِظَ شعره ، وأكثر من التمثُّل ، والأمثلة على ذلك تَجِلُّ عن الحصر .

وكان المُعْتَمِد بن عباد (ت488هـ) يتمثَّل بشعر المُتَنَبّي ، فقد كان يُنْشِدُ بانتشاءٍ قوله : (البسيط)

أَزُورُهُمْ وسَوادُ اللَّيلِ يَشْفَعُ لِي ... وأَنْثَنِي وبَياضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بِي [9]

كما حَضَّ على رواية شعر أبي الطيب ؛ مما أغضب شعراء بَلاطِهِ ، وحَدَثَ أن رَدَّدَ المعتمد في أحد مجالسه – باستحسانٍ بالغ – قول المُتَنَبّي : (الطويل)

إِذَا ظَفِرَتْ مِنْكِ العُيُونُ بِنَظْرَةٍ ... أَثَابَ بِهَا مُعْيِي المَطِيِّ وَرَازِمُهْ [10]

فارتجل ابن وَهْبُون المُرْسِيّ (ت483هـ) البيتينِ الآتيينِ ، ويظهر فيهما مدى إعجابه بالمُتَنَبّي وموهبته الشعرية ؛ فضلاً عَمَّا يعتمل بنفسه من غيظٍ منه : (الطويل)

لَئِنْ جَادَ شِعْرُ ابْنِ الحُسَينِ فَإِنَّمَا ... تُجِيدُ العَطَايَا ، وَاللُّهَا تَفْتَحُ اللَّهَا

تَنَبَّأَ عُجْبًا بِالقَرِيضِ ، وَلَو دَرَى ... بِأَنَّكَ تَرْوِي شِعْرَهُ لَتَأَلَّهَا ! [11]

وقد خاطب أبو الحسن يوسف بن محمد بن الجَدّ عَمَّه أبا القاسم محمد بن عبد الله بن الجَدّ (ت515هـ) من مَيُورقَة (Mallorca) عندما تناثر عِقْد رؤساء جزيرة الأندلس ؛ فصَدَّرَ رسالته ببيتين للمتنبي قالهما في رثاء خولة أخت سيف الدولة الحمدانيّ [12] .

وقد رَدَّ يُوسُف بن تَاشُفِين (ت500هـ) على خطاب ألفونسو السادس (أَذْفُونَش بن فَرْذلَنْد) (Sagrajas) ملك قَشْتَالَة (Castilla) ببيت واحد من شعر المُتَنَبّي [13] ، وكان قاضي المرابطين أبو بكر بن العَرَبِيّ المعافريّ (ت543هـ) يحفظ ديوان المُتَنَبّي ويُكْثِرُ من التمثُّل به ، وكان قاضيهم الكبير عِيَاض (ت544هـ) يَرْوِي شعر المُتَنَبّي – عن شارحه ابن السيد البطليوسيّ (ت521هـ) – في جُمْلَةِ ما رَوَاهُ عنه [14] .

كما أَلَّفَ أبو القاسم بن عبد الغفور الكُلاعيّ (ت545هـ) كتاب (الانتصار لأبي الطَّيب) ، ووضع ابن عبد الملك الشَّنْتَرِينيّ مُعْجَمًا لمُشْكِل شعر المُتَنَبّي وسرقاته [15] ، وكان المَهْدِي بن تُومَرْت (ت524هـ) يَتَمَثَّل بشعر المُتَنَبّي [16] .

وقد دَرَجَ شعراء الأندلس على تلقيب أنفسهم بألقاب شعراء المَشَارِقَة ، وبلغ الإعجاب بالمُتَنَبّي درجة دَفَعَتْ بعضهم أن يُلَقَّب بلقبه ، مثل : ابن هَانِئ الأَنْدَلُسِيّ (ت362هـ) ، وابن دَرَّاج القَسْطَلِيّ (ت421هـ) ، وأبو طالب عبد الجَبَّار (ت520هـ) .

مَضَاضَة الغَبْنِ :

(المَضَاضَة) هي الألم الذي يجده المرء من وَجَع المصيبة ، و(الغَبْن) هو تبخيس الحُقُوق . وعندما يَرَى المرءُ نفسَهُ أهلاً للسيادة والقيادة ، ويُقِرُّ برسوخ صفات المجد والعلا في نفسه ، ويَثِقُ بمواهبه وفضائله ، وينزع نحو المعالي ، وينتهي به الأمر إلى الحرمان ، وفي الوقت نفسه تَقَرُّ عَين أراذل القوم ، عندئذٍ يستقر في نفسه الإحساس بمَضَاضَة الغَبْن ، والأمر كما يقول ابن الرُّومِيّ (ت283هـ) : (الكامل)

يَا لَيتَ أَهْلَ العَقْلِ إِذْ حُرِمُوا عُصِمُوا مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالفِتَنِ
لَكِنَّهُمْ حُرِمُوا وَما عُصِمُوا فَقُلُوبُهُمْ مَرْضَى مِنَ الحَزَنِ
وَكَأَنَّ أَهْلَ العَقْلِ إِذْ خُلِقُوا وُقِفَتْ قُلُوبُهُمُ عَلَى المِحَنِ
وَهُمْ أَحَسُّ عَلَى بَلِيَّتِهِمْ مِنْ غَيرِهِمْ بِمَضَاضَةِ الغَبَنِ [17]

ويَرْجِعُ هذا الحزن إلى فقدان التناغُم والانسجام بين ما تريده الذات ، وما يوجد بالفعل على أرض الواقع ، ونَتَجَ عن هذه المفارقة الساخرة عذابًا مُضْنِيًا ، وماذا يَفْعَلُ المرءُ عندما يرى فضائله القائمة به قاعدةً به – على حد تعبير الجَاحِظ (ت255هـ) ! [18] – وما إلى ذلك من أمورٍ يَعْجَزُ العَقْلُ عن إيجادِ تفسير مقبولٍ لها ! لا بُدَّ أن تَشْغَلَ هذه الأمور ذهنه ؛ فيلتقطها ، ويُعَبِّرُ عنها ، مُبْدِيًا حسرته إزاءها ؛ لذا انطلق لسانهم بالحكمة الصائبة والمُفَارَقَة اللاذعة ، التي نبعت من عُمْق فهمهم وتأملهم للحياة وغرائب أمورها .

المَبْحَثُ الأَوَّلُ : أَسْبَابُ مَضَاضَةِ الغَبْنِ :

هُنَاك جُمْلَةٌ من الأسباب أَدَّتْ إلى ترسيخ الإحساس بمَضَاضَة الغَبْن في نفس المُتَنَبّي وشعراء الأندلس ، منها : كَون الرِّزْقَ مُقَدَّر ، ومُعَانَدَة الزَّمَان للفُضَلاء ، وسَعْي الحَاسِد ، وخيانة الصديق ، وإهانة الكريم في وطنه .

الرِّزْقُ مُقَدَّرٌ عِنْدَ المُتَنَبّي :

الأمور معقودٌ نواصيها بالحظوظ والأرزاق المُقَدَّرة ؛ فلا يَجْنِي الإنسانُ من دُنْيَاهُ غير المُقَدَّر له ، وجاء في المثل العربيّ : (رِزْقُ اللهِ لا كَدُّكَ) [19] ، أي لا ينفعك كَدُّكَ إذا لم يُقَدَّرْ لك .

ويفعل الرجلانُ الفعلَ نفسه ؛ وَيَخْتَلِفُ الرِّزْقَانِ ؛ فيُرْزَق أحدهما ، ويُحْرَم الآخر ، يقول المُتَنَبّي : (الطويل)

وَيَخْتَلِفُ الرِّزْقَانِ وَالفِعْلُ وَاحِدٌ إِلَى أَنْ تَرَى إِحْسَانَ هَذَا لِذَا ذَنْبَا [20]

تَتَفَاوَتُ الأَرْزَاقُ على الرغم من أَنَّ الفِعْلَ وَاحِدٌ ، ويقوم به كثيرون ؛ فيُفْلِحُ قومٌ ، ويَخْسِرُ آخرون ، وهي مقادير لا يمكن تغييرها .

الرِّزْقُ مُقَدَّرٌ عِنْدَ شُعَرَاءِ الأَنْدَلُسِ :

حاول شعراء الأندلس تفسير سبب تفاوُت الأرزاق ، وانتهوا بأنَّ (كُلّ شَيءٍ فِي قَبْضَةِ القَدَرِ) [21] ، وقد ينالُ القاعدُ أوفرَ الحُظُوظِ ، وتكون نتيجة سَعْي المُجْتَهِد الحِرْمَان ، والرزق مُقَدَّر مُنْذُ الأَزَل ، يقول أبو بكر محمد بن محرز الزهريّ البَلَنْسِيّ : (الكامل)

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ فَلَوْ رُمْنَا زِيَادَةَ ذَرَّةٍ لَمْ نَقْدِرِ [22]

ولكن إذا لم يُقَدِّرِ اللهُ للعبدِ الخيرَ لَمْ يُحَصِّلْهُ ، يقول ابن حَمْدِيس الصقليّ (ت527هـ) : (الطويل)

إِذَا اللهُ لَمْ يَمْنَحْكَ خَيرًا ، مُنِعْتَهُ عَلَى مَا تُعَانِيهِ مِنَ الحِذْقِ وَالنُّبْلِ [23]

ولا حيلة في تسخير الرزق ، يقول أبو مُحَمَّد بن هارون القُرْطُبِيّ : (الطويل)

وَمَا بِيَدِ المَخْلُوقِ فِي الرِّزْقِ حِيلَةٌ تُقَدِّمُهُ عَنْ وَقْتِهِ أَوَ تُؤَخِّرُهْ [24]

وما كان للإنسان مِنْ رِزْقٍ سيأتيه لا محالة ، يقول أبو العلاء بن قاسم القَيسِيّ : (البسيط)

يَا وَاقِفَ البَابِ فِي رِزْقٍ يُؤَمِّلُهُ لا تَقْطَنَنَّ فَإِنَّ اللهَ فَاتِحُهُ

إِنْ قَدَّرَ اللهُ رِزْقًا أَنْتَ طَالِبُهُ لا تَيْأَسَنَّ فَإِنَّ اللهَ مَانِحُهُ [25]

ويؤكد ابن جابر الأندلسيّ (ت780هـ) أنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ ، لن يَزِيدَهُ سعي ، ولن يُنْقِصَهُ قعود ، يقول : (الطويل)

هُوَ الرِّزْقُ مَقْسُومٌ فَلَيسَ بِزَائِلٍ وَلَو سِرْتَ حَتَّى كِدْتَ تَخْتَرِقَ الأُفْقَا

فَكَمْ قَاعِدٍ قَدْ وَسَّعَ اللهُ رِزْقَهُ وَمُرْتَحِلٍ قَدْ ضَاقَ بَينَ الوَرَى رِزْقَا [26]

ولا جدال أنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ ، ولا حيلة فيه ، تُقَدِّمُهُ أَوَ تُؤَخِّرُهْ ، وإذا قَدَّرَ اللهُ رِزْقًا ؛ فإنه يصيب العبد – على ضَعْفِهِ وجُبْنِهِ – لا محالة ، ويُحْرِمُ منه غيره – عَلَى مَا تُعَانِيهِ مِنَ الحِذْقِ وَالنُّبْلِ – فكم قَاعِدٍ عَنِ السَّعْيِ وَسَّعَ اللهُ رِزْقَهُ ، وكم مُرْتَحِلٍ كُلّ يَومٍ قُتِّرَ عليه رِزْقُهُ .

مُعَانَدَةُ الزَّمَانِ لِلفُضَلاءِ عِنْدَ المُتَنَبِّي :

الدهرُ من طبعه التقلُّب والتبدُّل ؛ فيَسُوءُ ويَسُرّ، ويَبْنِي ويَهْدِم ، ويُعْطِي ويَمْنَع ، وهو في حربٍ دائمة مع الناس ، يَخُصُّ أصحابَ الفَضْلِ والمُرُوءة بمزيد أذى ؛ لِمَا يعلمُ مِنْ قُوَّتِهم وجَلَدهم ، وإذا أَحْسَنَ الدَّهْرُ صُنْعًا ؛ فَإِنَّهُ لا يدوم ، وسُرْعَان ما يتبدَّل الأمر ، ويتكدَّر هذا الإحسان ؛ فَإِنَّ الدنيا دائمًا تَسْتَرِدُّ ما تهب ، ولا يصفو فيها نعيم .

والزَّمَانُ – في نظر المُتَنَبِّي – عَدُوُّ الأَحْرَارِ وكِرَام النفوس ؛ يُعْطِي الحُظْوَة لِلئَام ، ويُبْخِسُ حَقَّ الكِرَام ، وكَأَنَّه يُعَانِدُ أهلَ النُّهَى ، ويَقِفُ لهم بالمرصاد ، ويُعَكِّر صَفْوَهُم ، ويَحُولُ بينهم وبين ما يريدون ؛ فَإِنَّ النَّوَائِبَ تَسْمُو إلى أهل الفضل ، وتُحِيطُ بهم المصائب والمِحَن ، ويُلازِمهم الهَمّ ، ويرتفع خِسَاس الناس .

وتُطَارِدُ الليالي المُتَنَبِّي لتحول بينه وبين تحقيق مطلبه ، يقول : (الطويل)

أَهُمُّ بِشَيءٍ وَاللَّيَالِي كَأَنَّهَا تُطَارِدُنِي عَنْ كَونِهِ وَأُطَارِدُ [27]

وهو يَجِدُّ – دائمًا – في طلب المجد والمَعَالِي ، ويُمَاطِله الزمن : (البسيط)

لِلَّهِ حَالٌ أُرَجِّيهَا وَتُخْلِفُنِي وَأَقْتَضِي كَونَهَا دَهْرِي وَيَمْطُلُنِي [28]

ويُصَوِّرُ صراعه مع الأيام ، ويتهمُّ الدَّهْرَ بالمراوغة في أداء الحقوق ، يقول : (الطويل)

لَنَا عِنْدَ هَذَا الدَّهْرِ حَقٌّ يَلُطُّهُ وَقَدْ قَلَّ إِعْتَابٌ وَطَالَ عِتَابُ [29]

تُعَانِدُ الليالي المُتَنَبِّي ؛ كي لا يصل إلى بُغْيَتِه ، ويُمَاطِلُهُ الدَّهْر ، ويُضَيِّعُ حَقَّهُ ، ويُطِيلُ عِتَابه ، وفي نهاية الأمر يَجِدُ نَفْسَهُ مُنْكَسِرًا مَهْمُومًا لم يُحَقِّق ما يصبو إليه .

مُعَانَدَةُ الزَّمَانِ لِلفُضَلاءِ عِنْدَ شُعَرَاءِ الأَنْدَلُسِ :

لقد بَالَغَتِ الأيامُ في رَمْي أصحاب الفضل بالمصائب ، فـ(الحُرُّ مُمْتَحَنٌ) [30] ، و(الكريم مُرَزَّأٌ) [31] .

وتَخُصُّ صَرْفُ الحادثاتِ الأحرارَ بالمصائب ؛ ليصيرَ الشريفُ ذليلاً ، يقول الحاجب المُصْحَفِيّ(ت 372هـ) : (الطويل)

تَعَاطَيتُ صَرْفَ الحَادِثَاتِ فَلَمْ أَزَلْ أَرَاهَا تُوَفِّي عِنْدَ مَوعِدِهَا الحُرَّا [32]

ويشكو ابن زيدون (ت463هـ) الزمانَ الذي أصابه بالحَوَادِثِ العِظَام ، وحَارَبَ مَوَاهِبَهُ ، يقول : (الطويل)

لَعَمْرُ اللَّيَالِي إِنْ يَكُنْ طَالَ نَزْعُهَا لَقَدْ قَرْطَسَتْ بِالنَّبْلِ فِي مَوضِعِ النُّبْلِ [33]

ويؤكد – في موضعٍ آخر – أنَّ الدَّهْرَ يَرْمِي العُظَمَاء بالمصائب العِظَام ، يقول : (الخفيف)

وَهُوَ الدَّهْرُ لَيسَ يَنْفَكُّ يَنْحُو بِالمُصَابِ العَظِيمِ نَحْوَ العَظِيمِ [34]

وقد شُغِفَ الدهرُ بأن يَحُولَ بَينَ النَّابِهِينَ وبُلُوغ مَا يُحِبُّونَ ، يقول : (البسيط)

أَهْلُ النَّبَاهَةِ أَمْثَالِي لِدَهْرِهِمُ بِقَصْرِهِمْ دُونَ غَايَاتِ المُنَى وَلَعُ [35]

فَإِنَّ الدنيا مطبوعة على عداوة ذي الفَضْل ، يقول الرَّاضِي بن المُعْتَمِد (ت484هـ) : (الطويل)

سَجِيَّةُ ذِي الدُّنْيَا عَدَاوَةُ ذِي الفَضْلِ وَرَومُكَ نَقْلَ الطَّبْعِ مِنْ أَعْظَمِ الجَهْلِ [36]

ويرى المُعْتَمِدَ أَنَّ صُرُوفَ الدَّهْرِ تَتَعَمَّد مُحَارَبَة أَصْحَابِ المَقَامِ الرَّفِيع ، يقول : (البسيط)

مَتَى رَأَيتَ صُرُوفَ الدَّهْرِ تَارِكَةً إِذَا انْبَرَتْ لِذَوِي الأَخْطَارِ أَرْمَاقَا [37]

ويُعَبِّر أبو الحسن عليّ بن عبد الغَنِي الفِهْرِيّ الحُصْرِيّ (ت488هـ) عن إصابة الدهر للفضلاء ؛ فيقول : (الطويل)

أَفَاضِلُ هَذَا الدَّهْرِ تَشْكُو صُرُوفَهُ وَمَا كُنْتُ فِيهِ مِنْ أَفَاضِلِهِ بِدْعَا [38]

وكان أبو الحَسَن عَلِيّ بن أَضْحَى الهَمَدَانِيّ قد وَلِيَ قضاء القُضَاة بغَرْنَاطة (Granada) ، واشتهر بالجُود ، وجَلَّ قَدْرُهُ ؛ فَصَحَّ له القيام بمُلْك غَرْنَاطة ، إلا أنه لم يَبْقَ إلا قليلاً ، وتُوُفِّيَ حَتْفَ أنفه . ومن شعره قوله وقد دخل مجلسًا غاصًّا ؛ فجلس في أُخْرَيات الناس ، وأراد التنبيه على قدره : (الكامل)

نَحْنُ الأَهِلَّةُ فِي ظَلامِ الحِنْدِسِ حَيْثُ احْتَلَلْنَا فَهُوَ صَدْرُ المَجْلِسِ

إِنْ يَذْهَبِ الدَّهْرُ الخَئُونُ بِعِزِّنَا ظُلْمًا فَلَمْ يَذْهَبْ بِعِزِّ الأَنْفُسِ [39]

ويُعْلِنُ ذُخْر الدولة بن المعتمد تَذَمُّره من الدهر ؛ لأنه يهتضم حقوق الأحرار : (مجزوء الرمل)

آهِ مِنْ دَهْرٍ غَدَا حُرُّهُ يُهْتَضَمُ [40]

ويرى ابن خَفَاجَة الأَنْدَلُسِيّ (ت533هـ) أَنَّ الزَّمَانَ يَجُورُ في حكمه ؛ ويَظْلِمُ أبناءه ؛ فيحط عُلْوَهُم ، وَيَرْفَعُ سُفْلَهُم ، يقول : (الكامل)

مَا لِلزَّمَانِ يَجُورُ فِي أَبْنَائِهِ حُكْمًا ، وَيَرْمُقُهُمْ بِعَينِ العَائِبِ

لِيَحُطَّ عُلْوَهُمُ ، وَيَرْفَعُ سُفْلَهُمْ فَكَأَنَّهُمْ قَلَمٌ بِيُمْنَى كَاتِبِ [41]

وعندما أجمع أبو جَعْفَر بن سَعِيد (ت 559هـ) رأيه على أن يَفِدَ على أمير المؤمنين عبد المؤمن ؛ فأخذ في ذلك مع أصحاب له ؛ فجعلوا يَثْنُونه عن ذلك ، وظَهَرَ عليهم الحَسَدُ له ؛ فقال: (السريع)

عَجِبْتُ مِمَّنْ رَامَ صَدْرَ العُلا يَرُومُ أَنْ يَصْفُو لَهُ دَهْرُ [42]

ويقول ابنُ الخَطِيب (ت776هـ) إنَّ الزَّمَانَ يَتَوَخَّى الأحرارَ بِالشَّقَاءِ : (الكامل)

وَالدَّهْرُ عَنْ فَتَكَاتِهِ لا يَنْثَنِي وَأَخَصُّ مَنْ يَشْقَى بِهِ أَحْرَارُهُ [43]

ويقول ابن فُرْكُون (تُوُفِّيَ في القرن التاسع الهجري) إنَّ الدَّهْرَ يَخُصّ العُظَمَاء – دُونَ غَيرِهم – بالمصائب : (الطويل)

هُوَ الدَّهْرُ مَنْ أَضْحَى عَمِيدًا بِغَايَةٍ تُصِبْهُ اللَّيَالِي دُونَ ذَاكَ عَلَى عَمْدِ [44]

يَشْكُو أهلُ النَّبَاهَةِ – دائمًا – صُرُوفَ الدَّهْرِ ، الذي لا تصفو مشاربه – أبدًا – لِمَنْ رَامَ صَدْرَ العُلا ، ولا يَنْثَنِي عن فَتَكَاتِهِ ، ويَجُورُ فِي حُكْمِهِ ؛ فيُعَاوِن الوَغْدَ السَّخِيفَ ، ويُعَادِي أَهْلَ الفَضْلِ ، ويَخْتَصّ النبلاءَ بالرَزَايَا ؛ وينحو (بالمُصَاب العَظِيم نَحْوَ العَظِيمِ) ؛ فَتُوَفِّي الحَادِثَاتُ – عِنْدَ مَوعِدِهَا – الحُرَّا ، وتُقَرْطِسُ بِالنَّبْلِ فِي مَوضِعِ النُّبْلِ ، ولا تترك لذوي الأخطار أرماق .

سَعْيُ الحَاسِدِ عِنْدَ المُتَنَبِّي :

الحَسَدُ دَاءٌ قديم وخُلُقٌ دنيء ، وكم لَقِيَ الفُضَلاء منه ما نَغَّصَ عليهم حَيَاتَهُمْ وأقضّ مَضْجَعَهُمْ ؛ فَإِنَّ الحسدَ موقوفٌ – دائمًا – على أَهْلِ الفَضْلِ .

ويَحْفُلُ الحَاسِدُ بما لا يَمْلُكُه ، ويَطْلُبُ ما لا يَجِدُهُ ، وهو لا يُطِيقُ النِّعْمَةَ عند غيره ، وإِنْ كانت عنده ، ولا يستريح إلى شعور الناس بالسعادة ؛ لانقطاع ما بينه وبينهم من رَحِم العطف والمشاركة في الأفراح والآلام ، ويحزنه أن يَنْعَمَ الناس ؛ لأنه يرى النعمة وقفًا عليه ، ويرى أنَّ كُلّ ما سَرَّ غَيرَهُ مسلوبٌ منه ؛ فَكُلَّمَا زَادَ شَقَاءُ النَّاسِ تَضَاعَفَتْ لَذَّتُهُ [45] .

وقد كَرَّرَ المُتَنَبّي كلمة (الحَسَد) في ديوانه ؛ « فلا تكاد تَخْلُو قصيدة له من ذِكْر الحَسَد بلفظه أو بمعناه ، ومن الإيماء تارةً إلى حُسَّاد مَمْدُوحيه ، وتارةً أخرى إلى حُسَّادِه هُوَ » [46] ؛ لأنَّ الحَسَد يُلِحُّ على ذهنه ، ويُسَيطِرُ على تفكيره ، وكأنه لا يوجد لفظ غيره ، ولا بُدَّ أن هذا الإلحاح المُتَكَرِّر ينطوي على دلالة ، وهو يريد أن يُقَرِّرَ معنى الحَسَد في الأذهان والأسماع ؛ لأنه دائم التفكير في الحُسَّاد – الذين يَكِيدُونَ له ، ويُنَغِّصُونَ عيشه – ومِمَّا يُؤَيِّدُ ذلك أنه سَمَّى ابنه مُحَسَّدًا ، وكان يُهَاجِمُ حُسَّادَهُ في أكثر مدائحه لسيف الدولة الحَمَدَانِيّ (ت356هـ) ؛ فهو يُثِيرُ حفيظةَ الناسِ ؛ لأنه يريد أن يتردَّد اسمُه على كُلِّ لسان ، وقد تَرَاكَمَ عليه الحُسَّاد وازدحموا لمكانته السامية ، ورَمُوه بسهامهم من كُلِّ حَدَبٍ وصوب ، ولم يكن يَعْرِفُ المُدَارَاة ؛ فاكتسب من جَرَّاء ذلك أعداءً وحُسَّادًا في كُلِّ مَكَانٍ حَلَّ فيه .

وحُسَّاده كُثْرٌ لا ينتمون إلى فئة معينة ؛ فمنهم الشعراء ، واللغويونَ ، والأمراء ، وقد استخفَّ بهم جميعًا ، « وكانت غطرسته تزيد هذا الكيد وذلك الحَسَد تَلَظِّيًا واضطرامًا» [47] .

وإذا شَعَرَ المَرْءُ بأَنَّهُ محسودٌ فلا بُدَّ أن يكون ذلك لفرط شعوره بِتَفَوُّقِهِ وفضله ، ويرى المُتَنَبّي أن حُسَّادَه مَعْذُورُونَ في حَسَدِهِمْ لَهُ ؛ لأنه يُظْهِرُ – بِفَضْلِهِ وتَقَدُّمِهِ – نقصهم وتقصيرهم ، وعَجْزِهِمْ عن اللِّحَاق بِهِ ، وكيف لا يَحْسُدُونَ مَنْ صَارَ كالعَلَمِ فِي كلِّ فضلٍ [48] .

إِنَّ اعتزازَهُ بنفسه يَظْهَرُ في تعاليه على الناس ، وهذا التعالي خليقٌ بأن يملأ الصدورَ ضغينةً وحسدًا ، وهو يدركُ أن مكانته جالبة للحَسَدِ والكَيد ؛ لذا يُشْفِقُ على حُسَّادِهِ ويلتمس لهم العُذْر في حِقْدِهم عليه ، ولومهم له ، وتآمرهم ضده بالدسائس ؛ فَصَعْبٌ عَلَى الحَسُودِ الثَّنَاءُ .

وقد ابْتُلِيَ بحسد الآخرين له من جَرَّاء طموحه ، وعُلُوّ نفسه ، وتعاليه على غيره ، وتفوقه في نظمه ، ولا يخلو نابةٌ من حَسُود ، يقول : (الطويل)

وَأَرْحَمُ أَقْوَامًا مِنَ العِيّ وَالغَبَا وَأَعْذِرُ فِي بُغْضِي لأَنَّهُمُ ضِدُّ [49]

ويتراءى الحُسَّادُ له « دائمًا في كُلِّ مكان وكُلِّ موقف ؛ فهم لا يَحْسُدُونَهُ على منزلته أو ما يناله مِنْ فَيضِ العطايا فحسب ، وإنما يَحْسُدُونه على كُلِّ شيء » [50] .

إِنَّهُ في صراعٍ دائم مع خصومه في سبيل تحقيق الذات ، وقد أعدَّ الرِّماح لمواجهة حَاسِدِيه ، كما استعان بسيف الدولة لكَبْتهم ، وأبان عن سبب حسدهم له ؛ فهو (مُحَسَّدُ الفَضْلِ) [51] ، وله (عَلَى كُلِّ هَامَةٍ قَدَمُ) [52] . ومَنْ يَطْرُق سَمْعُهُ شعره من الخُصُوم ، يَحْسُده على بديع نظمه وموهبته الفائقة ، ويهلك من شدة وقع شعره عليه ، يقول : (الرَّمَل)

فَإِذَا مَرَّ بِأُذْنَي حَاسِدٍ صَارَ مِمَّنْ كَانَ حَيًّا فَهَلَكْ [53]

ويصف داء الحسد وصعوبة علاجه ، يقول : (الطويل)

سِوَى وَجَعِ الحُسَّادِ دَاوِ فَإِنَّهُ إِذَا حَلَّ فِي قَلْبٍ فَلَيسَ يَحُولُ

وَلا تَطْمَعَنْ مِنْ حَاسِدٍ فِي مَوَدَّةٍ وَإِنْ كُنْتَ تُبْدِيهَا لَهُ وَتُنِيلُ[54]

ويحاول المتنبي – دائمًا – إثارة غيظ الحُسَّاد ، ويرى لَذَّةً كُبْرَى في ذلك ، ويقف من أعدائه وحساده موقف المتعالي ، وسخريته سخرية الواثق المُتَمَكِّن ، وهو يلتمس عُذْرًا لمن يَحْسُدُونَهُ على مكانته من سيف الدولة ؛ لأنه قد وَصَل إلى مكانٍ تَحْسُدُ النفوسُ الأبصارَ عليه ، يقول : (الوافر)

وللحُسَّاد عُذْرٌ أن يَشِحُّوا على نَظَرِي إليهِ وأَنْ يَذُوبُوا

فإِنّي قد وَصَلْتُ إلى مَكَانٍ عليهِ تَحْسُدُ الحَدَقَ القُلُوبُ [55]

وقد جعل نَفْسَهُ داءً عُضَالاً يُمْرِض الحُسَّاد [56] ؛ فهو عقوبةٌ لهم ، تَفْضَحُ زَيفَهُم وضعف شعرهم ؛ لذا يَعْجَزُون عن اللِّحَاقِ به ؛ وقد طَلَبَ من سَيفِ الدَّولَةِ – الذي جَلَبَ لَهُ الحُسَّاد بِمَا مَنَحَهُ من نِعْمَةٍ وعطاء – أن يُبَلِّغَهم أنه هو السابقُ الذي لا يُدْرَك [57] ، كما استنجد به لِدَفْعِ كيدهم ومكرهم [58] ، وصَرَّحَ بِأَنَّهُ لم يقصد – بما أبدعه من شعرٍ خالد – تعجيز حُسَّادِهِ وتَحْقِيرِهِمْ ، ولكنه زاخرٌ هائجُ الموج كالبحر يُغْرِقُ مَنْ يُزَاحِمُهُ دون قصد [59] .

سَعْيُ الحَاسِدِ عِنْدَ شُعَرَاءِ الأَنْدَلُسِ :

ابْتُلِيَ أبو عامر بن شُهَيد (ت426هـ) بِحِقْدِ مُعَاصِرِيه وحسدهم ، وإسرافهم في الكَيدِ له والغضّ من شأنه ، وقد طَعَنَ بعضُ الحاسدينَ فيه عند سُلَيمَان المُسْتَعِين (ت407هـ) ؛ فلَمَّا بَلَغَهُ ذلك أنشده قصيدة مطلعها : (الطويل)

وَبُلِّغْتُ أَقْوَامًا تَجِيشُ صُدُورُهُمْ عَلَيَّ ، وَإِنّي مِنْهُمُ فَارِغُ الصَّدْرِ

أَصَاخُوا إِلَى قَوْلِي فَأَسْمَعْتُ مُعْجِزًا وَغَاصُوا عَلَى سِرِّي فَأَعْيَاهُمُ أَمْرِي [60]

ويقول إنَّ حُسَّادَه يَحْقِدُونَ عليه ، ويشتدُّ غيظهم منه إنْ تَحَدَّثَ أو صَمَتَ ؛ لأنه يبلغ مأربه في كِلا الحالين : (الطويل)

وَكِدْتُ لِفَضْلِ القَوْلِ أَبْلُغُ سَاكِتًا وَإِنْ سَاءَ حُسَّادِي مَدَى كُلِّ قَائِلِ[61]

ويُصَرِّح بأنه يعيش بين أُنَاس سُفَهاء لا يعقلون ؛ مما جعلهم يُنَاصِبُونَهُ العَدَاء ، ويتربصون به تربُّص الحية بفريستها : (الطويل)

أَرَى أَعْيُنًا تَرْنُو إِلَيَّ كَأَنَّمَا تُسَاوِرُ مِنْهَا جَانِبَيَّ أَرَاقِمُ [62]

وقال ابن حَزْم الأندلسيّ (ت456هـ) عندما أَحْرَقَ المُعْتَضِدُ (ت461هـ) كُتُبَهُ : (البسيط)

لا يَشْمَتَنَّ حَاسِدِي إِنْ نَكْبَةٌ عَرَضَتْ فَالدَّهْرُ لَيسَ عَلَى حَالٍ بِمُتَّرِكِ [63]

ولَمَّا رأى تَكَالُبَ الحاسدينَ عليه ، وانشغالهم بالكيد له ، واهتمامهم الشديد بالتآمر عليه ، وبَذْلَ كُلِّ طاقةٍ في سبيل القضاء عليه ، أخذته الدهشة ، واشتدَّ به العُجْبُ من هؤلاء ؛ فقال مُعَبِّرًا عن ذلك : (البسيط)

دَعْهُمْ يَعُضُّوا عَلَى صُمِّ الحَصَى كَمَدًا مَنْ مَاتَ مِنْ قُولِهِ عِنْدِي لَهُ كَفَنُ

أَمَا لَهُمْ شُغْلٌ عَنِّي فَيَشْغَلُهُمْ أَو كُلُّهُمْ فِيَّ مَشْغُولٌ وَمُرْتَهَنُ

كَأَنَّ فِكْرِي شَيخٌ بِهِ أُمِرُوا فَلَيسَ يَغْفُلُ عَنِّي مِنْهُمُ لُسُنُ

إِنْ غِبْتُ عَنْ لَحْظِهِمْ مَاجُوا بِغَيظِهِمُ حَتَّى إِذَا مَا رَأَونِي طَالِعًا سَكَنُوا [64]

ويرى ابن زيدون أنَّ الشعراء يَحْسُدُونه لِمَا حَازَهُ مِنْ مَكَارِم ومَوَاهِب ؛ لأنهم يعجزون – تمام العجز – عن اللحاق به أو إدراكه ، وقد ازدادت الصلات توثقًا بين ابن زيدون وأبي الحَزْم بن جَهْور (ت435هـ) ، وجَرَّتْ هذه المنزلة عليه كيد النُّظَراء ، الذين اضطرمت جَوَانِحُهم حَسَدًا ، وتَقَطَّعَتْ أنفاسُهم غيظًا لمنزلته من أبي الحَزْم .

ولأنه بَلَغَ المَدَى ، وحُسَّادُهُ مُقَصِّرُونَ ، امتلأت قُلُوبُهُم حِقْدًا وحَسَدًا وكَرَاهِيَة ؛ فاتهموه بأمورٍ باطلة لم تَدُرْ بخلده يومًا ، يقول : (الطويل)

بَلَغْتُ المَدَى – إِذْ قَصَّرُوا – فَقُلُوبُهُمْ مَكَامِنُ أَضْغَانٍ أَسَاوِدُهَا رُقْطُ

يُوَلُّونَنِي عُرْضَ الكَرَاهَةِ وَالقِلَى وَمَا دَهْرُهُمْ إِلاَّ النَّفَاسَةُ وَالغَمْطُ [65]

وقد أكثر ابن زيدون من الشكوى الصارخة من الحُسَّاد ، الذين قاموا بدورٍ كبيرٍ في سجنه ، وحَذَّر أبا الحَزْم من الإنصات لأقوال الوُشَاة ؛ لأنهم كَاذِبُون مُخَادِعُونَ [66] ، ينسبون إليه تُهَم باطلة لم يفعلها ، يقول : (الطويل)

وَقَدْ وَسَمُونِي بِالتِي لَسْتُ أَهْلَهَا وَلَمْ يُمْنَ أَمْثَالِي بِأَمْثَالِهَا قَطُّ [67]

ونُلاحِظ حَسْرَتَهُ المريرة الظاهرة في قوله (أَمْثَالِي بِأَمْثَالِهَا قَطُّ) ؛ فإِنَّ الفُضَلاء أمثاله لا يفعلون ما يَعِيبُ أبدًا ؛ لذا جَعَلَ مِنْ أفدح المصائب المباغتة أنْ يَرْمِي المجرمُ المحسنَ بأشنع الجرائم زورًا وبُهْتَانًا ، وأَنْ يَكُونَ الرَّجُلَ الفَاضِلَ الكَرِيمَ هدفًا لسِهَام الباغينَ الحاقدينَ ، يقول : (الكامل)

وَأَشَدَّ فَاجِئَةِ الدَّوَاهِي مُحْسِنٌ يَسْعَى لِيُعْلِقَهُ الجَرِيمَةَ مُجْرِمُ [68]

لقد كان أعداؤه سببًا في نكبته حَسَدًا ؛ لأنه يتقدم عليهم كما يتقدم الجوادُ السابقُ على سائر الجِيَاد في ميادين السباق ، ولو كان بمقدور ابن زيدون أن يستبدل بحلمه جهلاً كي يُرْضِي أعداءه لَفَعل ، يقول في سُخريَة ظاهرة : (الطويل)

وَلَو أَنَّنِي أسْطِيعُ كَي أُرْضِيَ العِدَى شَرَيتُ بِبَعْضِ الحِلْمِ حَظًّا مِنَ الجَهْلِ[69]

وقد انزعج من إعراض أبي الوليد بن جَهْوَر (ت462هـ) عنه ؛ فتَوَجَّهَ إليه راجيًا ومُلِحًّا في الرجاء ألا يَهْدِمَ مَجْدَهُ الذي بناه ، وألا يُفْسِدَ حَالَهُ الذي أَصْلَحَهُ ، وألا يُسْعِدَ حُسَّادَهُ الذين أشقاهم ، يقول : (الطويل)

بَنَيتَ فَلا تَهْدِمْ ، وَرِشْتَ فَلا تَبْرِي وَأَمْرَضْتَ حُسَّادِي ، وَحَاشَاكَ أنْ تُبْرِي [70]

وَلَقِيَ في إِشْبِيلِيَة (Sevilla) مِنْ كَيدِ الحُسَّادِ وعَنَتهم مثل ما لَقِيَ في قُرْطُبَة (Cordoba) ، وبسبب الخصومات التي زَخَرَ بها بلاط المُعْتَضِد كان الحُسَّادُ يَقِفُونَ له بالمِرْصَاد ؛ لذا شَبَّهَ البلاط بأنه جَنَّة حُفَّتْ بِالمَكَارِهِ ، يقول : (مجزوء الكامل)

كَأَنَّهَا لِي جَنَّةٌ حُفَّتْ بِمَكْرُوهِ الحَسَدْ [71]

وما كاد المعتمد يتولى الأمر بعد أبيه المُعْتَضد حَتَّى نَشِطَ المفسدون لمحاربة ابن زيدون [72] ، وقد دَافَعَ المُعْتَمِدُ عن هذا الأخير ، وأَنْزَلَهُ منزلةً كريمة ، وكَبَتَ الحَاسِدِينَ ، وأرغم أنوفهم [73] .

ويقول أبو تَمَّام غالب بن رَبَاح الحَجَّام إِنَّ الحَاسِدَ يُبْخِسُ حَقَّهُ حَسَدًا : (الكامل)

نَظَرَ الحَسُودُ فَازْدَرَى لِي هَيئَةً وَالفَضْلُ مِنِّي لا يَزَالُ مُبِينَا

قَبُحَتْ صِفَاتِي مِنْ تَغَيُّرِ وُدِّهِ صَدَأُ المِرَاةِ يُقَبِّحُ التَّحْسِينَا [74]

ويرى السُّمَيسِرُ الإلبيريّ (ت بعد 488هـ) أَنَّ حَاسِدَهُ يَتَقَلَّى من الحَسَد ؛ بسبب شهرته وعلو صِيته [75] ، وليس من شك في أن المكانة الأثيرة التي حَظِيَ بها الأعمى التُّطَيلِيّ (ت525هـ) أثارت حفيظة معاصريه من الشعراء ، وأوقعت الكُرْهَ لَهُ في النفوس ، يقول : (الطويل)

أَيُغْضِبُ حُسَّادِي قِيَامِي إلى العُلا وَقَدْ قَعَدُوا لَمَّا ظَفِرْتُ وَخَابُوا [76]

وقال أبو جعفر بن سعيد وقد بلغه أنَّ حاسدًا شكره : (المجتث)

مَتَى سَمِعْتَ ثَنَاءً عَمَّنْ غَدَا لَكَ حَاسِدْ
فَكَانَ مِنْكَ انْخِدَاعٌ بِهِ فَرَأْيُكَ فَاسِدْ
بِصَدْرِهِ مِنْكَ نَارٌ لَهِيبُهَا غَيرُ خَامِدْ
وَعَلَّهُ لَكَ مَا زِدْ تَ فِي السَّعَادَةِ زَائِدْ
وَإِنَّمَا ذَاكَ مِنْهُ كَالحَبِّ فِي فَخِّ صَائِدْ [77]

ويقول ابن لِيونَ الغَرْنَاطِيّ (ت750هـ) إِنَّ الحَاسِدَ الدَّنِيء لا يهدف إلا إلى إنزالِ الفاضل عن رتبته حتى يعلو عليه : (الخفيف)

لا تُسَامِحْ يَومًا دَنِيًّا إِذَا مَا قَالَ فِي فَاضِلٍ كَلامًا رَدِيًّا
إِنَّ قَصْدَ الدَّنِيّ إِنْزَالُ أَهْلِ الـ فَضْلِ حَتَّى يُرَى عَلَيهِمْ عَلِيًّا [78]

وابن الخَطِيب قد نَالَهُ هذا الحسد ؛ فنُفِيَ من موطنه الأصلي إلى بلاد المغرب ؛ فلم يقف أحدٌ بجواره في محنته الصعبة هذه ؛ حقدًا وحسدًا من أقرانه له ، وقد سَطَّرَ هذا في شعره [79] ، وخَاطَبَ أَحَدَ الفضلاء ، وقد ظهر عليه الجُذَام ، ويسمى (داء الأسد) ؛ فقال : (المتقارب)

أَصَابَتْكَ يَا عَينُ عَينُ الحَسَدْ فَتَجْرُ النَّدَى وَالنَّدامَى كَسَدْ
وُكِلْتَ لِكُلِّ شَهِيرٍ خَطِيرٍ فَقُمْتَ بِهِ وَسَدَدْتَ المَسَدْ
وَلَمَّا عَلَوتَ وَقُدْتَ الزَّمَانَ بِحَبْلٍ فَأَوهَقْتَهُ مِنْ مَسَدْ
رَأَى أَسَدًا مِنْ أُسُودِ الرِّجَالِ لِذَاكَ رَمَاكَ بِدَاءِ الأَسَدْ
تَعَزَّ فَمَا ثَمَّ مِنْ كَائِنٍ يُصَاحِبُهُ الكَونُ إِلاَّ فَسَدْ [80]

فهو يُرْجِعُ ما أصاب هذا الفاضل – وغيره من الفُضَلاء – من مرضٍ إلى عين الحاسد ، ويشهد أنه من أُسُود الرجال ، ومِمَّن صاحبه الكون فغَدَرَ به .

خِيَانَةُ الصَّدِيقِ عِنْدَ المُتَنَبِّي :

أيقن المتنبي أنه لا صديقَ لديه يَشُدُّ أَزْرَهُ وَقْتَ الضِّيق ، بعد أَنْ أعياه العثور على صديقٍ مخلص ؛ فقد (غَاضَ الوَفَاءُ) [81] ، و(صَارَ وُدُّ النَّاسِ خِبًّا) [82] ، و(دِينهم نِفَاقًا) [83] ؛ لأننا في زمن إِمْسَاكُ النَّاسِ فيه عَنْ قُبْحِ الفِعْلِ إحسانٌ مشكور [84] ؛ فهو يشكو تنكُّر الرِّفَاق ، ونُضُوب مَعِين الوَفَاء ؛ لأَنَّ مَنْ يَدَّعُونَ أَنَّهُم أصدقاء يخذلونه عند المُلِمَّات .

خِيَانَةُ الصَّدِيقِ عِنْدَ شُعَرَاءِ الأَنْدَلُسِ :

لم يسلَم ابن دَرَّاج من غدر الأصدقاء وجفائهم ، يقول : (المتقارب)

وَقَدْ ضَرَّسَتْنِي حُرُوبُ الخُطُوبِ وَأَبْطَأْتِ يَا نُصْرَةَ الأَوْلِيَاءِ
وَعُرِّفْتُ فِي نَكَبَاتِ الزَّمَانِ بِكُنْهِ الصَّدِيقِ وَمَعْنَى الإِخَاءِ
فَوَاقَدَمِي مِنْ سَلامِ العِثَارِ وَيَا أَلَمِي مِنْ سِهَامِ الجَفَاءِ (85)

وتَحَسَّرَ الحاجبُ المُصْحَفِيّ على خيانة صديقه المنصورِ بن أبي عامر(ت392هـ) ، يقول : (الطويل)

تَنَدَّمْتُ وَالمَغْرُورُ مَنْ قَدْ تَنَدَّمَا وَهَلْ يَنْفَعُ الإِنْسَانُ أَنْ يَتَنَدَّمَا ؟
غَرَسْتُ قَضِيبًا خِلْتُهُ عُودَ كَرْمَةٍ وَكُنْتُ عَلَيهِ فِي الحَوَادِثِ قَيِّمَا
أُكَرِّمُهُ دَهْرِي فَيَزْدَادُ خِسَّةً وَلَو كَانَ مِنْ عُودٍ كَرِيمٍ تَكَرَّمَا (86)

وقد أثبت ابن زيدون قدرته على التكيُّف مع الضغوط ، واحتفظ بقوته ومَضَاء عزمه ، مع ما تعرَّضَ له من أحداث ، ولمَّا ذاق مرارة السجن شكا لصديقه أبي حفص بن بُرْد الأصدقاء الذين تَنَكَّرُوا له ، وخَانُوا العَهْد ، وأظهروا مَوَدَّته ، وهم يُبْطِنُونَ له الحِقْد والكَرَاهِية ، ويَسْعُونَ إلى إيذائه ، وجَعَلُوه سَامِرِيًّا ، وتجنَّبُوا مَسَّهُ ، وكأنهم ذِئَابٌ تَجَمَّعَتْ حوله لتنهش لحمه وتُمَزِّقُهُ بأنيابها ، وأخذت تَتَجَسَّس لتعرف أخباره ؛ لتجد فرصةً لالتهامه في الظلام ، وهو بذلك يُعَرِّضُ بأبي الحزم بن جَهْوَر وحاشيته ، يقول : (مجزوء الرمل)

مَا تَرَى فِي مَعْشَرٍ حَا لُوا عَنِ العَهْدِ وَخَاسُوا ؟
وَرَأَونِي سَامِرِيًّا يُتَّقَى مِنْهُ المِسَاسُ
أَذْؤُبٌ هَامَتْ بِلَحْمِي فَانْتِهَاشٌ وَانْتِهَاسُ
كُلُّهُمْ يَسْأَلُ عَنْ حَا لِي ، وَلِلذِّئْبِ اعْتِسَاسُ (87)

وبَلَغَ المُعْتَصِمُ بن صُمَادِح (ت484هـ) أَنَّ ابن عَمَّار(ت477هـ) يغتابه فقال : (الطويل)

وَزَهَّدَنِي فِي النَّاسِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ وَطُولُ اخْتِبَارِي صَاحِبًا بَعْدَ صَاحِبِ
فَلَمْ تُرِنِي الأَيَّامُ خِلاً تَسُرُّنِي مَبَادِيهِ إِلاَّ سَاءَنِي فِي العَوَاقِبِ
وَلا قُلْتُ أَرْجُوهُ لِدَفْعِ مُلِمَّةٍ مِنَ الدَّهْرِ إِلاَّ كَانَ إِحْدَى المَصَائِبِ ! (88)

ويُقِرُّ أبو القَاسِم البَلَوِيّ الإشبيليّ (ت632هـ) أنه لا يوجد صديق يُفْشِي إليه بأسراره ؛ فيؤتمَن عليها ، ويُعِينُهُ بالجواب الصائب ، يقول : (الوافر)

أَمَا فِي الدَّهْرِ مَنْ أُفْشِي إِلَيهِ بِأَسْرَارِي فَيُؤْنِسُ بِالجَوَابِ ؟ (89)

وينصحُ ابن ليون التُّجِيبِيّ الناسَ ألا يغتروا باسم الصداقة ؛ فَإِنَّ كثيرًا مِنَ الأصدقاء يَجُرُّ على صديقه الهلاك : (الرمل)

لا تَثِقْ بِالوُدِّ مِمَّنْ تَصْطَفِي كَمْ صَدِيقٍ تَصْطَفِيهِ يُتْلِفُكْ (90)

ويقول أيضًا : (السريع)

لَمْ يَبْقَ مَنْ يُطْمَعُ فِي وُدِّهِ ... كَلاَّ وَلا مَنْ تُرْتَضَى صُحْبَتُهْ

النَّاسُ أَشْبَاهُ ذِئَابٍ فَهَلْ ... يُعْلَمُ ذِئْبٌ حَسُنَتْ عِشْرَتُهْ

مَنْ يَبْتَغِي اليَومَ صَدِيقًا كَمَا ... يَرْضَى فَقَدْ زَلَّتْ بِهِ بُغْيَتُهْ [91]

ويقول أيضًا : (السريع)

مَا بَقِيَ اليَومَ صَدِيقٌ وَلا ... مَنْ تَرْتَجِي النُّصْرَةَ فِي صُحْبَتِهْ [92]

لقد تَلَقَّى شعراءُ الأندلسِ فِي نَكَبَاتِ الزَّمَانِ سِهَامِ الجَفَاءِ من أصدقائهم ؛ فنَدِمَوا أشدَّ الندم ، وانتهوا إلى أن الصداقة (لَفْظَةٌ مَدْلُولُهَا فِي الدَّهْرِ كَالعَنْقَاءِ بَلْ هُوَ أَغْرَبُ) [93] ؛ حيث لم يَبْقَ مَنْ (يُطْمَعُ فِي وُدِّهِ) ، ولا مَنْ (تُرْتَضَى صُحْبَتُهْ) .

إِهَانَةُ الكَرِيمِ فِي وَطَنِهِ عِنْدَ المُتَنَبِّي :

الأَصلُ أَنْ يَجِدَ الإنسانُ الغِبْطَة في لُزُوم الوطن ، ويشعر بالذُّلّ والعجز عندما يتركه ، ولكنَّ قد يجد الفاضلُ الذُّلَّ في وطنه ؛ فيهاجر منه بحثًا عَمَّنْ يُقَدِّر قيمته ، لقد أصبح صاحبُ المُرُوءة غريبًا في وطنه ، ضائعًا حزينًا ، أردى به علمه وفهمه ، وغيرُ خافٍ أنَّ الإحساس بالغربة في الوطن يزيد من وطأة الإحساس بالانفصال عن الآخرين .

ووَرَدَ في المثل العربيّ : (أَزْهَدُ النَّاسِ فِي العَالِمِ جِيرَانُهُ) [94] ، و(مَثَلُ العَالِمِ كَالحُمَّةِ يَأْتِيهَا البُعَدَاءُ وَيَزْهَدُ فِيهَا القُرَبَاءُ) [95] .

ويشعر المتنبي بالغربة في كل مكان بين أهله وفي وطنه ، وما سيطر عليه هذا الشعور ، واستبدَّ به ، إلا لشعوره بنفاسته ، يقول : (البسيط)

وَهَكَذَا كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وَطَنِي ... إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيثُمَا كَانَا [96]

لقد أُهِينَ المُتَنَبِّي في وطنه ، الذي أَبْخَسَ قيمته وقدره ؛ وإثر ذلك ازداد شعوره بنفاسته ، وكونه يختلف عن الآخرين .

إِهَانَةُ الكَرِيمِ فِي وَطَنِهِ عِنْدَ شُعَرَاءِ الأَنْدَلُسِ :

يُشِيرُ مُنْذِر بن سعيد البلّوطيّ (ت355هـ) إلى أَنَّهُ عَاجَلَهُ النَّكَدُ لأنَّه في وطنه ؛ فاستلزم ذلك أنْ يَبْخَسُوا حقَّه ، يقول : (البسيط)

هَذَا المَقَامُ الذِي مَا عَابَهُ فَنَدٌ ... لَكِنَّ قَائِلَهُ أَزْرَى بِهِ البَلَدُ

لَو كُنْتُ فِيهِمْ غَرِيبًا كُنْتُ مُطَّرِفًا ... لَكِنَّنِي مِنْهُمُ فَاغْتَالَنِي النَّكَدُ [97]

ويواصل ابن دراج الشكوى من إحساسه بالغربة في بلده ، ويُعْلِنُ إحساسه بالضياع بين أهله ، بينما بِلادُ المَشْرِقِ تُرَحِّبُ به ؛ فيقول : (الطويل)

فَإِنْ غَرَّبَتْ أَرْضُ المَغَارِبِ مَوئِلِي وَأَنْكَرَنِي فِيهَا خَلِيطٌ وَخِلاَّنُ
فَكَمْ رَحَّبَتْ أَرْضُ العِرَاقِ بِمَقْدِمِي وَأَجْزَلَتِ البُشْرَى عَلَيَّ خُرَاسَانُ
وَإِنَّ بِلادًا أَخْرَجَتْنِي لَعُطَّلٍ وَإِنَّ زَمَانًا خَانَ عَهْدِي لَخَوَّانُ [98]

وما رحلة ابن شُهَيد في عالم الجنّ مِنَّا بِبَعِيدة ، لقد صوّر فيها ما يتعرّض له المُبْدِعُونَ الأندلسيونَ عَامة – والمتفوّقون منهم بخاصّة – من إهانة وتجريح ؛ مِنْ جَرَّاء استهانة بلدهم بهم .

ولخَّصَتْ أبيات ابن حزم الأندلسيّ ما يَشْعُرُ به الأديب الأندلسيّ من الغَبْن والظلم في وطنه ، يقول : (الطويل)

أَنَا الشَّمْسُ فِي جَوِّ العُلُومِ مُنِيرَةً وَلَكِنَّ عَيبِي أَنَّ مَطْلَعِيَ الغَرْبُ
وَلَو أَنَّنِي فِي جَانِبِ الشَّرْقِ طَالِعٌ لَجَدَّ عَلَى مَا ضَاعَ مِنْ ذِكْرِيَ النَّهْبُ
فَكَمْ قَائِلٍ : أَغْفَلْتُهُ وَهْوَ حَاضِرٌ وَأَطْلُبُ مَا عَنْهُ تَجِيءُ بِهِ الكُتْبُ
هُنَالِكَ يَدْرِي أَنَّ لِلبُعْدِ قِصَّةً وَأَنَّ كَسَادَ العِلْمِ آفَتُهُ القُرْبُ
فَوَاعَجَبًا مِنْ غَابَ عَنْهُمْ تَشَوَّقُوا لَهُ ، وَدُنُوُّ المَرْءِ مِنْ دَارِهِمْ ذَنْبُ [99]

وصَرَّحَ أَنَّ من أسباب حسرته أن الجميع يعترف بفضله ، ويُقِرُّ بمآثره ، إلا أهل بلده ، وما ذاك إلا لأنهم طَوَوا حَسَدًا عليه لأدبه وفَهْمِه وعِلْمه ، يقول : (الوافر)

أَنَا العِلْقُ الذِي لا عَيبَ فِيهِ سِوَى بَلَدٍ وَأَنِّي غَيرُ طَارِي
تُقِرُّ العِرَاقُ وَمَنْ يَلِيهَا وَأَهْلُ الأَرْضِ إِلاَّ أَهْلَ دَارِي
طَوَوا حَسَدًا عَلَى أَدَبٍ وَفَهْمٍ وَعِلْمٍ مَا يُشَقُّ لَهُ غُبَارِي
فَمَهْمَا طَارَ فِي الآفَاقِ ذِكْرِي فَمَا سَطَحَ الدُّخَانُ بِغَيرِ نَارِي [100]

ويقول ابن زيدون في رسالته البَكْرِيَّة ، التي وَجَّهَهَا إلى أستاذه وصديقه أبي بكر مُسَلِّم بن أحمد بن أفلح النحويّ (ت433هـ) بعد فراره من سجن أبي الحَزْم بن جَهْور : « فَقَدِيمًا ضَاعَ المَرْءُ الفَاضِلُ فِي وَطَنِهِ ، وَكَسَدَ العِلْقُ الغَبِيطُ فِي مَعْدِنِهِ » [101] .

وعلى الرغم من الحب الكبير الذي يحمله أبو القاسم عَامِر بن هِشَام القُرْطُبِيّ (ت623هـ) لبلده قُرْطُبَة ، إلا أن حَظَّه منها حَظّ مَغْبُون : (البسيط)

وَإِنَّمَا أَسَفِي أَنِّي أَهِيمُ بِهَا وَأَنَّ حَظِّيَ مِنْهَا حَظُّ مَغْبُونِ [102]

ويؤكد ابن لِيونَ التُّجِيبِيّ غُرْبَة الفَاضِلِ في وطنه بقوله : (البسيط)

دَعْ مَنْ عَرَفْتَ ، وَلا تَشْدُدْ عَلَيهِ يَدًا وَدَارِهِ ، وَتَحَفَّظْ مِنْهُ مَا بَقِيَا

أَمَا تَرَى البَلَدَ الذِي نَشَأْتَ بِهِ مُحَقِّرًا كُلَّمَا أَصْبَحْتَ مُعْتَلِيَا

وَغَيرُهُ مِنْ بِلادِ اللهِ قَاطِبَةً يُعْلِيكَ لا سِيَّمَا إِنْ كُنْتَ مُتَّقِيَا (103)

ويرى ابن عَبَّاد الرُّنْدِيّ (تلميذ المَقَّريّ) أَنَّ الكَرِيمَ يُهَانُ في وطنه ؛ حتى يُوَارَى رَمْسه ، يقول : (البسيط)

لا يَبْلُغُ المَرْءُ فِي أَوطَانِهِ شَرَفًا حَتَّى يَكِيلَ تُرَابَ الأَرْضِ بِالقَدَمِ (104)

وعلى الرغم من ترحيب البلاد بشعراء الأندلس ؛ إلا أنهم لَقَوا العَنَاء والنَّكَد في وطنهم ، الذي يُهِينُ أبناءه ، ويُبْخِسُ حَقَّهم ، ويُرَحِّبُ بالغرباء ويُكْرِمُهُمْ ، ويتشوق إليهم ؛ فَإِنَّ المرءَ لا يَبْلُغُ الشرفَ فيه إلا بعد أن يموتَ ويفارق الحياة !

لقد تمثلت أسباب الشعور بمضاضة الغبن عند المُتَنَبّي وشعراء الأندلس – في الغالب – في التنافر بين ما يبذله المُرْءُ من جهدٍ كبير ، وما يُلاقِيهِ مِنْ جَزَاءٍ ضئيل .

المَبْحَثُ الثَّانِي : أَثَرُ مَضَاضَةِ الغَبْنِ :

هُنَاكَ جُمْلَةٌ من الآثار نتجت عن الإحساس بمَضَاضَة الغَبْن في نفس المتنبي وشعراء الأندلس ، منها : الشعور بالخُمُول ، والحُزْن في العِيد ، والفَخْر الزائد بالنفس ، والتشبُّه بالأنبياء ، والفَخْر بالشعر ، والتصبُّر في مُوَاجَهَة المِحَن ، ورَفْض الذُّل ، والرحيل عن البلد ، وهجاء الناس ، وهجاء الملوك ، ومُصَاحَبَة الكِتَاب ، والصَّمْت .

الشُّعُورُ بِالخُمُولِ عِنْدَ المُتَنَبّي :

لقد بَدَا المُتَنَبّي ضعيفًا منكسرًا في كثير من مواقف الحياة ، حيث عانى من قهر الزمان ، وقلة الصديق ، وكثرة الحُسَّاد ، إلا أَنَّهُ لم يقف مستسلمًا ، بل قَاوَمَ وتَحَدَّى ، وحاول أن يبدو منتصبًا شامخًا ، عزيزَ النَّفْسِ ، مُوَضِّحًا أنَّ قيمة الحياة في أن يعيشها الإنسان بعِزٍّ مهما كَلَّفَهُ ذلك من تَعَبٍ ومَشَقَّة ، وإلا فالموتُ خيرٌ منها .

إنه يَطْلُبُ أن يُتْرَكَ في الفلاة ، التي يسلكها بغير دليل ، واقفًا في الهَجِير ، الذي يَسِيرُ فيه بغير لِثَام على وجهه ؛ لاعتياده ذلك ؛ فَإِنَّ راحته في الفَلاة والهجير ، وتَعَبِه في النزول والمَقَام ، يقول : (الوافر)

ذَرَانِي وَالفَلاةَ بِلا دَلِيلٍ وَوَجْهِي وَالهَجِيرَ بِلا لِثَامِ
فَإِنِّي أَسْتَرِيحُ بِذِي وَهَذَا وَأَتْعَبُ بِالإِنَاخَةِ وَالمَقَامِ [105]

إنه يعتزُّ بنفسه ، ويَزْهُو بمَوَاهِبِه ، ويريد أن يُؤَكِّدَ ذاته ؛ لذا لا يُطيقُ الخُمُول والرَّاحة والسُّكُون والرُّقَاد ؛ لأنَّ راحته في الحَرْب والمُغَامرة ؛ حتى يَحَار الطبيبُ في أمره ؛ فيخبره أنه فرسٌ أَضَرَّ بِجِسْمِهِ الدَّعَة وقِلَّة التعب : (الوافر)

يَقُولُ لِيَ الطَّبِيبُ : أَكَلْتَ شَيئًا وَدَاؤُكَ فِي شَرَابِكَ وَالطَّعَامِ
وَمَا فِي طِبِّهِ أَنِّي جَوَادٌ أَضَرَّ بِجِسْمِهِ طُولُ الجَمَامِ [106]

إنه يَجِدُ سعادته في سيره في الفَلاة بلا مُرْشِد ؛ وتَعَرُّض وَجْهِهِ لِوَهَجِ الحَرّ دون لِثَامٍ يقيه ؛ فهو يهنأ بذلك ، ويتعب من السُّكُون والخُمُول والاستقرار في موضعٍ بعينه ، وعندما مَرِضَ وجاء الطبيب ، أرجع ما أصابه إلى طَعَامِهِ وشَرَابِهِ ؛ ولكنَّ الصوابَ أَنَّ سبب مَرَضِهِ ، الذي أضر بجسمه ، طول راحته .

الشُّعُورُ بِالخُمُولِ عِنْدَ شُعَرَاءِ الأَنْدَلُس :

يُصَرِّح ابن دَرَّاج القَسْطَلِيّ بأنَّ غُرْبَتَهُ داخل وطنه بين أبناء زمانه أشبه بالموت ؛ فخُمُوله في مجتمعه يتساوى مع دفنه حَيًّا : (الطويل)

وَفَاحَتْ لَيَالِي الدَّهْرِ مِنِّيَ مَيِّتًا فَأَخْزَينَ أَيَّامًا دُفِنْتُ بِهَا حَيًّا [107]

وجعل أبو عامر بن شُهَيد المرارة التي تَسْكُن حلقه (شَجًى تَنْسَدُّ مِنْهُ الحَلاقِمُ) [108] ، وصَرَّحُ بأنَّ سببَ شقائه هو علمه ومجده وفهمه الذي يتميز به بين أُنَاسٍ

سُفَهَاء ، نالوا المُنَى ، وتركوه يروح ويجيء – في حيرةٍ شديدة – يَطْلُبُ الأماني في رِيَاضِ الأَبَاطِلِ : (الطويل)

حُبُوا بِالمُنَى دُونِي وَغُودِرْتُ دُونَهُمْ أَرُودُ الأَمَانِي فِي رِيَاضِ الأَبَاطِلِ
وَمَا هِيَ إِلاَّ هِمَّةٌ أَشْجَعِيَّةٌ وَنَفْسٌ أَبَتْ لِي مِنْ طِلابِ الرَّذَائِلِ[109]

ويَحْظَى الجميع بعطاء أبي الحَزْم بن جَهْور ، إلاَّ ابن زيدون الذي يَقِفُ وحيدًا مَنْبُوذًا محرومًا من فَيضِ عطائه ؛ مِمَّا يجعله مستنكرًا آسفًا على ما يجد ، يقول : (البسيط)

حُرِمْتُ مِنْهُ وَحُظَّ النَّاسُ كُلُّهُمُ لَهَذِهِ العِبْرَةُ الكُبْرَى مِنَ العِبَرِ [110]

ويتَعَجَّبَ من حاله حين صار مهملاً ، خامل الذكر في عهد أبي الوَلِيد بن جَهْور : (الطويل)

أَمِثْلِيَ غُفْلٌ خَامِلُ الذِّكْرِ ضَائِعٌ ضَيَاعَ الحُسَامِ العَضْبِ أَصْدَأَهُ الغِمْدُ ؟ [111]

ويستنكر ابن وَهْبُون الأندلسيّ ما حدث له ، ويلوم الأيام التي غَفَلَتْ عن مناقبه الغُرّ ، ويُبْدِي العُجْبَ الشديد لخُمُولِهِ ، على الرغم مِمَّا يَتَحَلَّى به من خِصَال العُلا والمجد ، يقول : (الطويل)

أَتَخْفَى عَلَى الأَيَّامِ غُرُّ مَنَاقِبِي وَقَدْ بَذَّ شَأْوِي شَأْوَ كُلِّ نَقَابِ
وَيَرْكَبُنِي رَسْمُ الخُمُولِ وَقَدْ غَدَتْ خِصَالُ العُلا وَالمَجْدِ طَوعَ رِكَابِي [112]

وشكا أبو الأصبغ عيسى بن مُحَمَّد العَبْدَرِيّ ، المعروف بابن الواعظ ، خُمُوله في مدينة أَلش (Elche) ؛ حَتَّى إنه شَبَّهَ نَفْسَهُ بِالحَيِّ الذي دُسَّ مَحْبُوسًا فِي رَمْس [113] .

ولمَّا مات المُعْتَصِمُ بن صُمَادِح آل أمر ابنه ووليّ عهده الواثق عِزّ الدولة إلى أن حَلَّ ببجاية في دولة بني حَمَّاد مستوحشًا ، وفَارَقَ المُلْكَ كما أَوصَاهُ والده ، وفي ذلك يقول : (الطويل)

لَكَ الحَمْدُ بَعْدَ المُلْكِ أَصْبَحْتُ خَامِلاً بِأَرْضِ اغْتِرَابٍ لا أُمِرُّ وَلا أُحْلِي [114]

ويؤذي سُليمانُ بن مُحَمَّد المَهْرِيّ الصقليّ طُول المُقَامِ ، ويُسْعِدُهُ التَّرْحَال الدائم : (الوافر)

ذَرِينِي أَجْعَلُ التَّرْحَالَ سِلْكًا أُنَظِّمُ فِيهِ سَاحَاتِ المَوَامِي
فَإِنِّي كَالزُّلالِ العَذْبِ يُؤذِي صَفَاهُ وَطَعْمَهُ طُولُ المُقَامِ [115]

ويستنكر الحَجَّام ما أصابه من خُمُول ، لقد عَامَلَهُ الزمان بالخَسْف ، وأَبْخَسَ قَدْرَهُ ، يقول : (الوافر)

وَإِنّي مِنْ زَمَانِي فِي خُمُولٍ دُفِنْتُ بِهِ ، وَمَنْ لِي بِالنُّشُورِ [116]

ويُقْرِنُ الأعمى التُّطَيلِيّ خُمُول المَجْد والعلم بأفول نجمه وخمول شأنه ، يقول : (الطويل)

وَمَا أَخْمَلُونِي لَكِنِ المَجْدَ أَخْمَلُوا وَمَا ضَيَّعُونِي لَكِنِ العِلْمَ ضَيَّعُوا [117]

ويصف أبو مُحَمَّد بن مَالِك القُرْطُبِيّ ما أصابه من خُمُول في زمانه وبين أقرانه ؛ فقد حَوَى قَصَب السَّبْقِ في بِدَعٍ شَتَّى ، وابتكر بدائعَ لم تَخْطُرْ ببالِ إنسان [118] .

ويَنْقِمُ ابن الخطيب على أَهْلِ زَمَانِه الذين لا يقدرونه حَقَّ قَدْرِهِ ؛ حَتَّى إِنَّهُ جَعَلَ نَفْسَهُ حيًّا يعيش بين أموات ، يقول : (الوافر)

أَحَيٌّ بَينَ أَمْوَاتٍ رُكُودٍ وَيَقْظَانٌ لَدَى زَمَنٍ نَئُومِ
أَدُورُ فَمَا أَرَى إِلاَّ نِيَامًا كَأَنِّي بَينَ أَصْحَابِ الرَّقِيمِ
عَفَتْ أَعْلامُ آدَابِي وَعِلْمِي بِهِمْ فَبَقِيتُ كَالرَّسْمِ القَدِيمِ [119]

عَانَى شُعَرَاءُ الأَنْدَلُسِ من الخمول وتبخيس الحقوق ؛ لأَنَّ دَهْرَهُمْ سَادَ بِهِ الأَرْذَلُونَ ؛ فلم يبصر أَهْلَ زَمَانِهِم مَوَاهِبَهُم مِنْ فَرْطِ جَهْلِهِم وحِقْدِهِم .

الحُزْنُ فِي العِيدِ عِنْدَ المُتَنَبِّي :

لم يُسَرَّ المُتَنَبِّي بقدوم العيد ؛ لأنه يتأسف على بُعْدِ أَحِبَّتِهِ ؛ وبسبب ما يعانيه في ظلّ حبسه عند كافور الإخشيديّ (ت357هـ) ؛ فأصبح العيدُ مناسبةً للحُزْنِ والأَسَى ، يقول : (البسيط)

عِيدٌ بِأَيَّةِ حَالٍ عُدْتَ يَا عِيدُ بِمَا مَضَى أَمْ لأَمْرٍ فِيهِ تَجْدِيدُ [120]

جُعِلَتْ الأعيادُ للفرح والسرور ، وإدخال البهجة على النفوس ، ولكن المُتَنَبِّي لم يستطع أن يشعر بالفرح في العيد ؛ وسيطر الحُزْنُ على قلبه ، وتَمَكَّنَ منه ؛ لِتَغَيُّرِ الحال ؛ فقد ابتعد عن أحبابه ، واقترب مِمَّن لا يَوَدَّهم ، وفَشِلَ في تحقيق مآربه .

الحُزْنُ فِي العِيدِ عِنْدَ شُعَرَاءِ الأَنْدَلُسِ :

عَرَّجَ ابن زَيدُون على بَطَلْيُوس (Badajos) في أثناء هجرته من قُرْطُبَة إلى إِشْبِيلِيَة ؛ فطَوَى بها بضعة أشهر ، وطالعه العِيدَان ؛ فهاجته الذكريات ، وقال : (الطويل)

خَلِيلَيَّ لا فِطْرٌ يَسُرُّ وَلا أَضْحَى فَمَا حَالُ مَنْ أَمْسَى مَشُوقًا كَمَا أَضْحَى ؟ [121]

وعندما حَلَّ العيد فَأَنِسَ كُلٌّ إلى أهله ، وسَعِدَ بوطنه ، نَظَرَ الشاعرُ فرأى نفسه نازحًا عن وطنه ، نائيًا عن أهله ؛ فناجاهم على البُعْد بهذه الأبيات : (البسيط)

إِنْ كَانَ عَادَكُمُ عِيدٌ ؛ فَرُبَّ فَتًى بِالشَّوقِ قَدْ عَادَهُ – مِنْ ذِكْرِكُمْ – حَزَنُ [122]

وقد خَتَمَ قصيدته بمطلع قصيدة للمُتَنَبّي [123] .

ودخلت بنات المُعْتَمِد عليه السجن في يوم عيد الفطر ، وكُنَّ يَغْزِلْنَ للناس بالأُجْرَة في أَغْمَات فرآهن في أطمارٍ رَثَّة ، وحالة سيئة ، فصدَّعن قلبه وأنشد : (البسيط)

فِيمَا مَضَى كُنْتَ بِالأَعْيَادِ مَسْرُورَا فَسَاءَكَ العِيدُ فِي أَغْمَاتَ مَأْسُورَا

أَفْطَرْتَ فِي العِيدِ لا عَادَتْ إِسَاءَتُهُ فَكَانَ فِطْرُكَ لِلأَكْبَادِ تَفْطِيرَا [124]

وأقام أبو مُحَمَّد بن مالك القُرْطُبِيّ بالمَرِيَّة مُدَّةً تحت ضَنْكِ معيشةٍ ؛ فَلَمَّا كان يومُ عيدٍ أنشد المُعْتَصِم بن صُمَادِح شعرًا قال فيه : (الطويل)

مَضَى الفِطْرُ وَالأَضْحَى وَلا نَيلَ يُقْتَضَى فَلِمَ أَخْفَقَتْ وَحْدِي إِلَيكَ مَطَالِبِي [125]

يعترف ابن زيدون بأَنَّ الأيامَ تَشَابَهَتْ عليه ؛ ولازَمَهُ الحُزْنُ ؛ بسبب بُعْدِ أحبابه عنه ؛ لذا لم يشعر بالفرح في عيد الفطر وفي عيد الأضحى ، وعلى الرغم من أَنَّ المُعْتَمِدَ كان يَسْعَدُ – فيما مضى بالأعياد – إلا أنَّ الأمرَ تَغَيَّرَ بعد سجنه ؛ لذا ساءه عيد الفطر ؛ فكان فطرُهُ تقطعيًا للأكباد ؛ بعد أَنْ شَاهَدَ فَقْرَ بَنَاتِهِ وذُلّهم .

الفَخْرُ الزَّائِدُ بِالنَّفْسِ عِنْدَ المُتَنَبّي :

كان المُتَنَبّي مفتونًا بنفسه , يظهر ذلك في شعره وحديثه وسيرته ، وهو يعتزُّ بنفسه ، والاعتزاز بالنفس سِمَة كُلّ الشعراء ، كما يقول طه حسين (ت1973م) ؛ لأَنَّ الكلامَ يُوَاتِيهم فلا يستطيعون دفعه [126] .

والأنا المُتَعَالِيَة من أبرز الظواهر التي تَمَيَّزَ بها شعر المُتَنَبّي ؛ فقد أدرك تفرُّده ؛ مما دَفَعَهُ إلى تعظيم الذات ، والتَّعَالِي على الآخرين ، وقد استخدم ضمير (أنا) ، الدالّ على الشعور بالغَطْرَسَة والكِبْرِيَاء والمُكَابَرَة بالذات ، أي أنا لا غيري ، في مَعْرِضِ الفخر والاعتزاز ، وحين « يَشْعُرُ الإنسانُ بأَنَّ مَنْ حوله لا يَعْرِفُ قَدْرَهُ أو تَجَاهَله ؛ فإنه يعود إلى ضمير تأكيد الذات (أنا) ، كَأَنَّهُ يَشُدُّ عينه وعقله إلى خصائص لا يراها » [127] .

وتَظْهَرُ نَبْرَةُ التَّعَالِي والاعتزاز بالذات في قوله : (الكامل)

أَنَا صَخْرَةُ الوَادِي إِذَا مَا زُوحِمَتْ وَإِذَا نَطَقْتُ فَإِنَّنِي الجَوزَاءُ [128]

لقد سَيطَرَتْ الكبرياءُ على نفس المُتَنَبّي ، وسَادَتْ نَغَمَةُ الفخر في كُلِّ أغراضه الشعريَّة ، حين يهجو أو يمدح أو يفخر أو يرثي أو يتغزل ؛ « فأما فَخْرُهُ

فظاهرٌ فيه هذا النُّزُوع ، وأما مَدْحُه فما هو إلا فَخْرٌ بكاف الخطاب ؛ لأنه كان يُثْنِي على ممدوحه بما يريده لنفسه ويَحُسُّه من صفاته ... وأما هجاؤه فهو فَخْرٌ مقلوب ... فيصحّ أن يُقَالَ إِنَّ شِعْرَ المُتَنَبّي كُلّه من بابٍ واحد هو باب الفخر » [129] ؛ فقد كان « تيَّاهًا يَتَسَامَى بِنَفْسِه على كُلِّ مَمْدُوح ، ويَتَعَالى عَلَى كُلِّ أهل عصره » [130] ، واستحوذ عليه هذا الشعور ؛ فلم يَكُنْ يرى أحدًا إلا ويرى لنفسه مَزِيَّةً عليه ؛ فهو (الذَّهَبُ المَعْرُوفُ مَخْبَرُهُ) [131] ، والكامل الذي لا يشوبه نقص [132] ؛ لذا لا يخفى إلا على الغَبِيّ [133] .

وقد عَبَّر عن تعاليه وإعجابه بنفسه وشعره في قوله : (الخفيف)

إِنْ أَكُنْ مُعْجَبًا فَعُجْبُ عَجِيبٍ لَمْ يَجِدْ فَوقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدِ [134]

وقوله : (الطويل)

أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيهِي بِمَا وَكَأَنَّهُ فَمَا أَحَدٌ فَوقِي ، وَلا أَحَدٌ مِثْلِي [135]

وهو بعيد عن العيب والنقيصة كَبُعْدِ الثُّرَيَّا عن الشيب والكبر [136] ، ويَفْخَرُ الفَخْرُ به ؛ حيث صار رداءً على منكبه ، ونعلاً في رجله [137] ، وهو الذي يُبَيِّنُ الإلهُ به أقدارَ العِبَادِ ومَصَائِرهم [138] ؛ إنه جوهرة يَفْرَحُ بها كِرَامُ النَّاسِ ، وغُصَّة تعترض في حلق اللِّئَام [139] .

الفَخْرُ الزَّائِدُ بِالنَّفْسِ عِنْدَ شُعَرَاءِ الأَنْدَلُسِ :

يقول ابن حَزْم إنه إذا اشتدَّ الخَطْب ، وجَدَّ الرِّجَالُ في السعي ؛ فهو أَوَّلَهُمْ ، ومَنْ يُحَاوِلُ اللحاق به يكبو في رَهْجِه : (الطويل)

وَمِثْلِي إِذَا جَدَّ الرِّجَالُ وَأَتْعَبُوا نُفُوسَهُمْ سَعْيًا ، وَكَدَّهُمُ الخَطْبُ

تَقَدَّمَ سَبْقًا ثَانِيًا مِنْ عِنَانِهِ وَغَادَرَ مَنْ جَارَاهُ فِي رَهْجِهِ يَكْبُو [140]

ويَحُسُّ ابن زيدون إحساسًا قويًّا بتميُّزه ، ويعْلن ثباته أمام المِحَن ؛ فإنَّ سجنه لا ينفي عنه قيمته ، وإنما هو جَهْلُ الناسِ وسُوء تَقْدِيرهم ، وقد فخر بنفسه في معرض هجومه على أعدائه وحُسَّادِه ، وجعل نفسه ليثًا لا يعبأ بنَهِيق الحمير ، وبدرًا لا يَكْتَرِثُ بنُبَاح الكلاب ، ثُمَّ وصف نفسه بالروض ذي الرائحة العَطِرَة الزَّكِيَّة ، الذي لا يضيره طنين الذُّبَاب فيه ، وصَرَّح بأنه يُسْعِدُه أن يَدُومَ حِقْدَهم عليه ؛ لأنه يجوس بين ضلوعهم فيضنيهم ويوسعهم غمًّا ونُحُولاً [141] .

ويَفْخَرُ ابن الخَطِيب بقُوَّتِه ، وعَزْمِه الماضي ، وقدرته على تَحَمُّلِ الشدائد : (الطويل)

وَإِنْ عَرَكَتْ مِنِّي الخُطُوبُ مُجَرِّبًا نِقَابًا تَسَاوَى عِنْدَهُ الحُلْوُ وَالمُرُّ

فَقَدْ عَجَمَتْ عُودًا صَلِيبًا عَلَى الرَّدَى وَعَزْمًا كَمَا تَمْضِي المُهَنَّدَةُ البُتْرُ [142]

بعد أن ذاق شعراء الأندلس مضاضة الغبن ، أرادوا أن يُنَفِّسُوا عن نفوسهم ، ويغيظوا عدوهم ؛ فلجأوا إلى الفخر الزائد بالنفس في محاولة لإرضاء الذات ، وتخفيف القلق .

التَّشَبُّهُ بِالأَنْبِيَاءِ عِنْدَ المُتَنَبّي :

دفعت شَهْوَةُ المَجْدِ المُتَنَبّي إلى أن يُشَبِّهَ نَفْسَهُ بالأنبياء ، يقول : (الخفيف)

أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارَكَهَا اللَّـ ـهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودِ [143]

إنه يشعر أنه غريب في هذه الأُمَّة ، لا يَعْرِفُ الناسُ قَدْرَهُ ، وقوله (تداركها الله) يجوز أن يكون دعاء عليهم بالهلاك ، أو دعاء لهم بالهداية .

ويقول : (الخفيف)

مَا مُقَامِي بِأَرْضِ نَخْلَةَ إِلاَّ كَمُقَامِ المَسِيحِ بَينَ اليَهُودِ [144]

إقامته في قرية نَخْلَة كإقامة عيسى (عليه السلام) بين اليهود ؛ فإنَّ أَهْلَ هذه القرية أعداءٌ له ، كما كانت اليهودُ أعداءَ عيسى (عليه السلام) .

التَّشَبُّهُ بِالأَنْبِيَاءِ عِنْدَ شُعَرَاءِ الأَنْدَلُسِ :

وصل الأمر بشعراء الأندلس أَنْ يُشَبِّهوا أنفسهم ببعض الأنبياء في مواقفٍ بعينها تتصل بالغُرْبَة والضَّيَاع ، على نحو ما يُحَدِّثُنَا ابن الأَبَّار(ت658هـ) [145] عن عِزِّ الدولة بن صُمَادِح الذي أرسله أبوه رسولاً إلى يُوسُف بن تَاشُفِين – عند كونه بغَرْنَاطة – فاعتقله وقَيَّدَهُ وأرسل يشكو لأبيه ما أصابه ؛ فرَدَّ عليه بقوله : (المتقارب)

عَزِيزٌ عَلَيَّ وَنَوحِي دَلِيلُ عَلَى مَا أُقَاسِي ، وَدَمْعِي يَسِيلُ

لَئِنْ كُنْتُ يَعْقُوبَ فِي حُزنِهِ وَيُوسُفُ أَنْتَ ؛ فَصَبْرٌ جَمِيلُ [146]

لقد استبدَّ الحُزْنُ بالمُعْتَصِم بن صُمَادِح بَعْدَمَا عَلِمَ ما صار إليه ابنه مِنَ المَهَانَة ؛ لذا شَبَّهَ نَفْسَهُ في الحُزْن بيعقوب عليه السلام ، وشبه ابنه في تعرضه للظُّلْم بيُوسُف عليه السلام .

ونجد السُّمَيسِر يُصَوِّرُ ضياعه بين قومه مشبهًا نفسه في ذلك بالنبي نُوح عليه السلام فيقول : (الخفيف)

ضِعْتُ فِي مَعْشَرٍ كَمَا ضَاعَ نُوحٌ بَينَ قَومٍ قَدْ أَصْبَحُوا كُفَّارَهْ

ضَرَبُوهُ وَمَا ضُرِبْتُ وَلَكِنْ جَعَلُونِي مِمَّنْ يُنَافِرُ دَارَهْ [147]

لقد ضَاعَ السُّمَيسِر في وطنه ، وتَعَرَّضَ للغَبْنِ البَيِّن ، والظُّلْم المُبَاشِر ، وأُجْبِرَ على تَرْكِ وطنه ، والخروج منه حفاظًا على حياته التي تَعَرَّضَتْ للخطر .

الفَخْرُ بِالشِّعْرِ عِنْدَ المُتَنَبّي :

إِنَّ المُتَنَبِّي في كبريائه وتعاليه ، ومنزلته في الشعر واللغة ، يتميز عن سائر الشعراء ، وقد استطاع بفصاحته وإبداعه أن يُنْسِي الناسَ شِعْرَ سابقيه ، ولا شَكَّ أن الاحتفاء بالمُتَنَبِّي ؛ مِمَّا يزيد عدد حُسَّادِه والمُتَتَبِّعينَ لشعره ؛ فلَمَّا احتفل به الأمراء والرؤساء ، اهتم الناس بأمره ؛ حَتَّى أصبح شُغْلَهُم الشاغل ، وجميع ذلك مُنْتَهٍ إلى نهاية واحدة ، هي نَبَاهَةُ الشأنِ [148] .

وقد رَوَى صاحب (الصُبْح المُنْبِي) أَنَّ أبا عليّ الفارسيّ (ت377هـ) قال : « قيل للمتنبي على مَنْ تنبأت ؟ قال : على الشعراء ؛ فقيل : لِكُلِّ نَبِيٍّ مُعْجِزَة ؛ فما معجزتك ؟ قال : هذا البيت : وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ »[149] .

وقد تبارى المُتَشَبِّهُونَ بِالشُّعَرَاء في ذَمِّه ، وحاولوا تقليد شعره ؛ ولكنهم كالقُرُود لا يَقْدِرُونَ أن يتكلموا بِمِثْلِ كَلامِهِ [150] ، وقد ذَمَّ المُتَشَاعِرِينَ الذين يَكِيدُونَ له ويَتَرَبَّصُونَ به الدوائر ، لقد سمع شعرًا سخيفًا يَهْذِي به مَنْ لا يُحْسِنُونَ العربيَّة ؛ فغَضِبَ لهذه الصفات الغرّ التي لا تجد واصفًا ، ولهذا الأمير المَاجِد (سيف الدولة) الذي لا يَجِدُ شاعرًا يصف مَجْده ، واستنكر ذلك مُتَعَجِّبًا ، بأي لفظٍ يقول هؤلاء الخِسَاس اللِّئَام من الشعراء الشعر ، وليس لهم فَصَاحَة العَرَب [151] .

لقد أُعْجِبَ المُتَنَبِّي بشعره ، وأَكْثَرَ من الفخر به ؛ فهو يَخْلَعُ على الممدوح حُلَلاً فاخرة من الثناء ، لا يُبْلِيهَا الزمان ، إنه يُمَجِّدُ شِعْرَه ، ويباهي بذيوعه في مشارق الأرض ومغاربها ، وتَخَطِّيه حُدُودِ الزَّمَانِ والمكان ، ويَرَى أنه يَفْضُلُ أَقْرَانه من الشعراء ؛ فقد أتى (بِمَنْطِقِ العَرَبِ الأَصِيلِ) [152] ، وَلم (تَسْمَعْ بِسِحْرِه بَابِلُ) [153] ، و(مَا الدَّهْرُ إلا مِنْ رُوَاةِ قَلائِدِه) [154] ، وبشعره (أَتَى المَادِحُونَ مُرَدَّدَا) [155] ؛ لأنه هو (الصَّائِحُ المَحْكِيُّ ، وَالآخَرُ الصَّدَى) [156] ؛ فَإِنَّ شِعْرَ غيره من المَادِحِينَ ما هو إلا ترديد لصدى شعره ومقتبس منه ، وقوافيه تَغِيظُ المُلُوك [157] ، وشعره صَهِيلُ الجِيَادِ ، وشعر غيره نُهَاقِ الحَمِير [158] ، وشعره النُّور ، وشعر غيره الظُّلَمُ [159] ، وشعره القصائد ، وشعر غيره الدعوى [160] ، وشعره الحكمة ، وشعر غيره هَذَيَان [161] ؛ إنه يَنَامُ مِلْءَ جُفُونِهِ ، ويَتْرُكُ الخَلْقَ سَاهِرِينَ يَخْتَصِمُونَ ويَتَنَازَعُونَ بسبب أشعاره [162] .

الفَخْرُ بِالشِّعْرِ عِنْدَ شُعَرَاءِ الأَنْدَلُسِ :

يقول ابن دَرَّاج القَسْطَلِيّ – في بيان تنوُّع قدراته الأدبيَّة – إنه قادرٌ على نظم بديع الشعر ، وكتابة الرسائل النثريَّة : (البسيط)

عَبْدٌ لِنُعْمَاكَ فِي كَفَّيهِ نَجْمُ هُدًى سَارَ لِمَدْحِكَ يَجْلُو الشَّكَّ وَالرِّيَبَا
إِنْ شِئْتَ أَمْلَى بَدِيعَ الشِّعْرِ أَو كَتَبَا أَو شِئْتَ خَاطَبَ بِالمَنْثُورِ أَو خَطَبَا

كَرَوضَةِ الحَزْنِ أَهْدَى الوَشْيَ مَنْظَرُهَا وَالمَاءَ وَالزَّهْرَ وَالأَنْوَارَ وَالعُشُبَا [163]

ويفخر أبو مروان عبد الملك بن غُصْن الخشنيّ الحِجَّارِيّ (ت454هـ) بشعره وذيوعه في قوله : (المنسرح)

وَأَلْفَ بَيتٍ مِنَ القَرِيضِ إِذَا مَاتَ جَمِيعُ الأَنَامِ لَمْ تَمُتِ
لَو أَنَّ شِعْرَ الوَرَى يُنَظَّمُ فِي عِقْدٍ لَكَانَتْ بِمَوضِعِ السِّطَةِ
سَائِرَةٌ حَيثُ لَمْ يَسِرْ قَمَرٌ وَلا سَرَتْ أَنْجُمٌ وَلا جَرَتِ [164]

وقد وصف ابن زيدون شعره بقوة التأثير ، وعُمْق النفاذ ، وسُرْعة الذيوع ، وجعل كُلّ قصيدة تختالُ في مِدَادِها كما تختال الكَعَاب في ملابسها المُوَشَّاة [165] ، ويتسلَّى بقصائد مدحه الظَّاعِنُ عن شوقه ، ويَسْعَدُ بها المقيمُ ؛ فهي رَيحَانة الجلساء ، ومِزَاجُ كأسِ الندماء [166] ؛ لأنه (هِزَبْر الشِّعْرِ) [167] .

ويُوَاجِهُ السُّمَيسِرُ الإِلْبِيرِيّ شعراء عصره بما يشير إلى اعتزازه بشعره وتفوُّقِهِ عليهم فيقول : (السريع)

يَا شُعَرَاءَ العَصْرِ لا تَحْسَبُوا شِعْرَكُمْ مُذْ كَانَ مَحْسُوسَا
فَإِنَّمَا حَيّكُمُ مَيّتٌ كَأَنَّمَا مُحْيِيكُمُ عِيسَى
إِنْ كَانَ مَنْظُومُكُمْ عِنْدَكُمْ سِحْرًا فَمَنْظُومِي عَصَا مُوسَى [168]

ويعتزُّ ابنُ حَمْدِيس بشعره ، ويفخر بقصائده المدحيَّة التي تنتشر في كُلِّ البِقَاع ، يقول في مدح عليّ بن يَحْيَى (ت515هـ) : (الكامل)

إِنّي امْرُؤٌ أَبْنِي القَرِيضَ وَلا أَرَى زَمَنًا يُحَاوِلُ هَدْمَ مَا أَنَا بَانِي
صَنَعٌ بِتَحْبِيرِ الثَّنَاءِ وَحَوكِهِ فَكَأَنَّمَا صَنْعَاءُ تَحْتَ لِسَانِي
وَأَفِيدُ نُوَّارَ البَدِيعِ تَضَوُّعًا مُتَنَسِّمًا بِدَقَائِقِ الأَذْهَانِ
وَالشِّعْرُ يَسْرِي فِي النُّفُوسِ ولا كَمَا يَسْرِي مَعَ الصَّهْبَاءِ وَالأَلْحَانِ
وَلَقَدْ شَأَوْتُ الرِّيحَ فِيهِ مُسَابِقًا مِنْ بَعْدِ مَا أَمْسَكْتُ فَضْلَ عِنَانِي
وَطَعَنْتُ فِي سِنِّ الكَبِيرِ وَمَا نَبَا عَنْ طَعْنِ شَاكِلَةِ البَدِيعِ سِنَانِي [169]

ويقول إن شعره لا نظيرَ له ؛ كأنه أُفْرِغَ من قَالِبِ السِّحْرِ : (البسيط)

إِنَّا أُنَاسٌ بِمَا نُثْنِي عَلَيكَ بِهِ نُهْدِي إِلَيكَ رِيَاضًا نَوَّرَتْ كَلِمَا
مِنْ كُلِّ نَاظِمِ بَيتٍ لا شَبِيهَ لَهُ فَلَيسَ يُنْثَرُ مِنْهُ الدَّهْرَ مَا نَظَمَا
مُسْتَغْرِقُ الذَّوقِ لِلأَسْمَاعِ يَحْسِبُهُ مِنْ قَالِبِ السِّحْرِ مِنْهُ أُفْرِغَ الحِكَمَا [170]

ويُبَاهي بشعره ومقدرته الفنيَّة ؛ فإِنَّ شِعْرَهُ يَجُوبُ الآفَاقَ ، ويُرَدِّدُهُ السَّامِعُونَ ، وتُسْعَد به النفوس ، وتَطْرَب له القلوب ، يقول : (الطويل)

وَإِنّي لأُهْدِي فِي سُلُوكِ غَرَائِبِي وَمُعْجِزِ نَظْمِي كُلَّ جَوهَرَة بِكْرِ

إِذَا مِا بَنَى بَيتًا مِنَ الشِّعْرِ مِقْوَلِي ثَنَى نَابِيًا عَنْ هَدْمِهِ مِعْوَلَ الدَّهْرِ
وَمَا الشِّعْرُ مَا يَخْلُو مِنَ الكَسْرِ وَزْنُهُ وَلَكِنَّهُ سِحْرٌ وَبَابِلُهُ فِكْرِي [171]

ورُبَّمَا يكون ما في طبع ابن حَمْدِيس من ميل إلى الفخر والمباهاة بشعره قد سَرَى إليه من وُلُوعِه بالمُتَنَبّي وشعره [172] .

التَّصَبُّرُ فِي مُوَاجَهَةِ المِحَنِ عِنْدَ المُتَنَبّي :

هَزِيمَةُ المُتَنَبّي لم تدفعه إلى الانطواء والانسحاب ، بل إلى التحدّي ومُغَالَبَة الأيام ؛ فَإِنْ أَصَابَهُ مَرَضٌ ؛ فَإِنَّ صَبْرَهُ وعَزْمَهُ لا يتأثرانِ بهذا المرض [173] ، وقد أفنى صُرُوفَ الدَّهْرِ عَزْمًا ، ولم يستطع الدهر أن يُفْنِيَ صَبْرَهُ [174] ؛ إنه يتلقى حوادث الدهر ومصائبه بنفسٍ صابرة ، وهِمَّة ثابتة ، تَحْتَقِرُ الخُطُوبَ الجَلِيلة ، وتعدّها صغيرة [175] ؛ حتى عَجِبَ الدَّهْرُ من تَحَمُّلِهِ لِنَوَائِبِهِ [176] ، ولا تُحْسِنُ الأيامُ ، التي تأتي بالحوادث ، أن تَكْتُبَ ما يُمْلِيه من الحكمة [177] ، وقد عَرَفَهُ الزمان وجَرَّبَهُ ، وعَرَفَ صلابته وشدَّته [178] ، إنه يُقَارِع الخطوب ويُدَافعها بجَلَده وقُوَّته وصبره ، ويؤنسه رأيه الصائب في المصائب السُّود ، وهو (للنَّائِبَاتِ حَمُول) [179] ، وقد اعْتَادَ المصائب ؛ فهَانَتْ عليه ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا كَثُرَ عليه الشيء اعتاده ، يقول في رثاء أُمّ سيف الدولة : (الوافر)

رَمَانِي الدَّهْرُ بِالأَرْزَاءِ حَتَّى فُؤَادِيَ فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ
فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِي سِهَامٌ تَكَسَّرَتِ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ
وَهَانَ فَمَا أُبَالِي بِالرَّزَايَا لأَنِّي مَا انْتَفَعْتُ بِأَنْ أُبَالِي[180]

إِنَّ نُيُوبَ الزَّمَانِ تعرفه مِنْ طُولِ صُحْبَتِهَا له ؛ فقد لازمها في طفولته وشبابه ، لقد رماهُ الدَّهْرُ بالأَرْزَاءِ ، وتَعَجَّبَ مِنْ حَمْلِهِ نَوَائِبه ، وعدم مُبَالاتِهِ بالرَّزَايَا ، وصَبْرِه على أَحْدَاثِهِ الحُطُمِ .

التَّصَبُّرُ فِي مُوَاجَهَةِ المِحَنِ عِنْدَ شُعَرَاءِ الأَنْدَلُسِ :

أَلْزَمَ الحَاجِبُ المُصْحَفِيّ نفسَهُ الصبرَ بعد نُزُولِ المُلِمَّات به ، يقول : (الطويل)

صَبَرْتُ عَلَى الأَيَّامِ لَمَّا تَوَلَّتِ وَأَلْزَمْتُ نَفْسِي صَبْرَهَا فَاسْتَمَرَّتِ
فَوَاعَجَبَا لِلقَلْبِ كَيفَ اصْطِبَارُهُ وَلِلنَّفْسِ بَعْدَ العِزِّ كَيفَ اسْتَذَلَّتِ [181]

وهو لِمَا لاقاه في حياته من عَجَائِبٍ يدعو إلى الصَّبْر ؛ لأنَّ الأيامَ تأتي بما هو أعجب ، يقول : (الكامل)

وَإِذَا أَتَتْ أُعْجُوبَةٌ فـَاصْبِرْ لـَهَا فَالدَّهْرُ يـَأْتِي بَعْدُ مَا هـُوَ أَعْجَبُ (182)

وأشار ابن الأَبَّار إلى صلابة عبد الله بن عبد العزيز المَرْوَانِيّ (ت393هـ) في محنته ؛ فقال : « كان جَلْدًا في محنته ، كثيرَ الدُّعَاء والضَّرَاعة » (183) .

وبعد سنة 452هـ نَقَمَ الفُقَهاء المالكيونَ على ابن حَزْم الظَّاهِرِيّ لمخالفته مذهبهم ، وأَلَّبُوا عليه المُعْتَضِد ؛ فأَمَرَ بإحراق كُتُبِهِ – بعد المناظرة التي جَرَتْ بين يدي أبي الجيش مجاهد العامريّ (ت436هـ) بين ابن حَزْم والقاضي أبي الوليد الباجيّ في مَيُورقَة – وقد شَعَر ابن حَزْم بالإحباط الشديد عندما أُحْرِقَتْ كُتُبُه ، ولكن تلك الحادثة لم تُضْعِفْ من عزيمته ، بل كشفت عن نزعة التحدّي عنده ؛ فقد قابلها بقوله متجلدًا للشامتينَ ؛ لِيُرِيهِمْ أَنَّ قَنَاتَهُ لا تَلِينُ لِرَيبِ الدَّهْرِ : (الطويل)

فَإِنْ تَحْرِقُوا القِرْطَاسَ لا تَحْرِقُوا الذِي تَضَمَّنَهُ القِرْطَاسُ ، بَلْ هُوَ فِي صَدْرِي
يَسِيرُ مَعِي حَيثُ اسْتَقَلَّتْ رَكَائِبِي وَيَنْزِلُ إِنْ أَنْزِلْ ، وَيُدْفَنُ فِي قَبْرِي(184)

ويُحَذِّرُ ابن زيدون الشامتينَ مِنْ عاقبة ما فعلوه ، ويُعْلِنُ تحديه لهم وثباته أمام المِحَن والشدائد ، يقول :(البسيط)

لا يُهْنِئُ الشَّامِتَ المُرْتَاحَ خَاطِرُهُ أَنِّي مُعَنًّى الأَمَانِي ضَائِعُ الخَطَرِ (185)

فهو كالأشجار الباسقة التي تَعْصِفُ الرياح بها ، وكالشمس والقمر يُخْسَفَانِ دون غيرهما من النجوم ، وكالسيف الصارم الذي يُودَعُ في جَفْنِه (186) .

ويرى السُّمَيسِرُ إِنَّ المُبْتَلَى بِالمَصَائِبِ لا يَمْلُكُ إلا الصَّبْرَ عليها : (السريع)

لَيسَ لِمَنْ لَيسَتْ لَهُ قُدْرَةٌ كَالأَخْذِ عَنِدَ الرُّزْءِ بِالصَّبْرِ
أَو لا فَمَا حِيلَةُ مُسْتَضْعَفٍ لَيسَ لَهُ فَضْلٌ عَلَى الذَّرِّ ؟ (187)

ويقول الأعمى التُّطَيلِيّ إِنَّ الحُرَّ يَصْبِرُ على المصائب : (الوافر)

فَإِنَّ الحُرَّ ، أَكْثَرُ مَا تَرَاهُ بِهِ الأَرْزَاءُ ، أَصْبَرُ مَا يَكُونُ (188)

ولا يُسَالِمُ الزمانُ ابن حَمْدِيس أبدًا ، وهو يُحْبِطُ كُلَّ محاولاته لتحقيق أمانيه ؛ لذلك اتخذَ الصبرَ درعًا يَتَّقِي به نوائب الدَّهْرِ ؛ لأنَّه يُؤْمِنُ بأَنَّ الصبرَ هو الذي يُحَقِّقُ الغايات ، ويُحَطِّمُ الصعاب والعقبات ، وقد مَزَجَ شَكْوَاهُ بالفخر بقُوَّتِهِ وبَأْسِهِ ، يقول : (الطويل)

تَدَرَّعْتُ صَبْرِي جُنَّةً لِلنَّوَائِبِ فَإِنْ لَمْ تُسَالِمْ يَا زَمَانُ فَحَارِبِ (189)

وينصح أبو بكر بن الحكيم الرُّنْدِيّ (ت708هـ) من أصابه الكَرْب بِالصَّبْرِ ؛ انتظارًا للفرج القريب مِنْ إِلَهِ العَالَمِينَ : (الطويل)

تَصَبَّرْ إِذَا مَا أَدْرَكَتْكَ مُلِمَّةٌ فَصُنْعُ إِلَهِ العَالَمِينَ عَجِيبُ (190)

ويُظْهِرُ مُحَمَّد بن أحمد بن قَاسِم الأُمِّيّ (ت750هـ) عِظَم الصابر وحُسْن عاقبته في الدنيا قبل الآخرة ، يقول في رثاء أبي الحسن الورَّاد : (الطويل)

عَلَى قَدْرِ صَبْرِ المَرْءِ تَصْغُرُ عِندَهُ خُطُوبٌ مِنَ الدُّنيَا عَلَى النَّاسِ تَعْظُمُ [191]

فالشاعر هنا يذكر أنه إذا كان صَبْرُ الإِنْسَانِ عظيمًا فإنه يرى المصيبة هَيِّنَة حقيرة ، وهي في نظر آخر جسيمة عظيمة .

لِذَا لا بُدَّ من التحلّي بالصبر في مواجهة المِحَن والخطوب ؛ فَإِنَّ رَحْمَةَ اللهِ واسعة ، وفرجه قريب ، وما حَلَّت الشدائد بالكِرَام إلا لِتُبَيِّنَ فَضْلَ سجاياهم .

رَفْضُ الذُّلِّ عِنْدَ المُتَنَبّي :

عندما تَعَرَّض المُتَنَبّي للظُّلْم ، تَحَرَّكَ بهِمَّة عالية لدفعه عن نفسه ، وتَرَكَ المَكَانَ الذي يلحقه الضَّيمُ فيه : (الطويل)

وَمَا زِلْتُ طَـودًا لا تَزُولُ مَنَاكِبِي إِلَى أَنْ بَدَتْ لِلضَّيمِ فِيَّ زَلازِلُ

فَقَلْقَلْتُ بِالهَمّ الذِي قَلْقَلَ الحَشَا قَلاقِلَ عِيسٍ كُلُّهُنَّ قَلاقِلُ [192]

وأَعْلَنَ رَفْضَهُ لِلذُّلّ ، وأنه لا يقنع مِن الدَّهْرِ بالنَّكَدِ العَاجِل ، يقول : (الخفيف)

أَينَ فَضْلِي إِذَا قَنِعْتُ مِنَ الدَّهْـ ـرِ بِعَيشٍ مُعَجَّلِ التَّنْكِيدِ [193]

وقال إنه يطلب العِزَّ ، ولو أَدَّىَ به إلى الموت ، ويرفض حياة الذل ، ولو كان في جِنَان الخلود : (الخفيف)

عِشْ عَزِيزًا أَو مُتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ بَينَ طَعْنِ القَنَا وَخَفْقِ البُنُودِ

فَاطْلُبِ العِزَّ فِي لَظَى ، وَذَرِ الذُّ لَّ وَلَو كَانَ فِي جِنَانِ الخُلُودِ [194]

يرفض المتنبي صاحب النفس العزيزة الذُّلَّ بِكُلّ أشكاله وصوره ، وتَنْفِرُ نَفْسُهُ منه ؛ وإِنْ تَعَرَّضَ له سارع لدفعه عن نفسه بالسيوف والرماح ، وهو لا يَرْضَى إِلاَّ بِأَنْ يعيش عزيزًا ؛ لذا يسْتَعِدُّ بالسيفِ ويحمِلُهُ ، ويستطيلُ الرُّمْحَ للمُطَاعَنَة ، ويُعِدُّ الخيلَ للمُغَاوَرَةِ .

رَفْضُ الذُّلِّ عِنْدَ شُعَرَاءِ الأَنْدَلُسِ :

يَرْفُضُ الحُرُّ الأَبِيُّ الذُّلَّ ، ويَنْفِرُ منه ؛ لأَنَّ (الكَرِيمَ إِذَا أُهِينَ تَنَاءَى) [195] ، على نحو ما يصور ذلك أحمد بن تليد الكاتب في قوله : (السريع)

لَمْ أَرْضَ بِالذُّلِّ وَإِنْ قَلاَّ وَالحُرُّ لا يَحْتَمِلُ الذُّلا

تَأْبَى عَلَيَّ النَّفْسُ مِنْ أَنْ أُرَى يَومًا عَلَى مُسْتَثْقِلٍ كَلاَّ [196]

وعندما أَطَالَ ابن زيدون المُكُوثَ في بلاط إدريس بن حَمُّود (ت447هـ) أمير مَالَقَة (Malaga) عَزَلَهُ أبو الوليد بن جَهْور مِنْ مَنْصِب السِّفَارة ؛ فعاد إلى قُرْطُبة ، وكتب شِعْرًا يُظْهِرُ اعتزازه بنفسه ؛ فإنْ حَالَتِ الأقدارُ بينه وبين ما يُؤَمِّلُ ويبتغي من العَفْو ؛ فنفسه حُرَّة أَبِيَّة لا تَقْبَلُ الضَّيم والإذلال ، وإنْ فَازَ بِالعَفْو والرِّضَا ؛ فهو غَايَةُ المُرَاد ، يقول : (الطويل)

فَإِنْ عَاقَتِ الأَقْدَارُ فَالنَّفْسُ حُرَّةٌ وَإِنْ تَكُنِ العُتْبَى فَأَحْرِ بِهَا أَحْرِ [197]

وتحسَّر على فِرَاق منصبه ، وحَاوَلَ أن يَحْفَظَ مَاءَ وَجْهِهِ ؛ فأبدى تَجَلُّده للشامتينَ ، واعتزّ بنفسه ، وأَعْلَنَ أَنَّه إذا تَنَكَّرت له بلاده ؛ فإنه لن يَقْتُلَ نفسه حزنًا عليها ؛ لأن عِزَّة نَفْسِهِ تَمْنَعه من ذلك ، وإذا انصرف عنه الحظّ الحَسَن ؛ فلن يتبعه باكيًا مُتَوَسِّلاً راجيًا أن يعود إليه ؛ فإنَّ الغِنَي في القناعة والرِّضَا باليسير ، يقول : (الكامل)

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي البِلادِ – إِذَا نَبَتْ – أَنْ لَسْتَ لِلنَّفْسِ الأَلُوفِ بِبَاخِعِ ؟
أَمَّا الهَوَانُ فَصُنْتُ عَنْهُ صَفْحَةً أَغْشَى بِهَا حَدَّ الزَّمَانِ الشَّارِعِ
فَلْيُرْغِمِ الحَظَّ المُوَلِّيَ أَنَّهُ وَلَّى فَلَمْ أُتْبِعْهُ خُطْوَةَ تَابِعِ
إِنَّ الغِنَى لَهُوَ القَنَاعَةُ ، لا الذِي يَشْتَفُّ نُطْفَةَ مَاءِ وَجْهِ القَانِعِ [198]

ويُفَضِّلُ أبو عبد الله محمد بن جُزَيّ (ت757هـ) الموت على الخُضُوع والذُلّ ؛ فَإِنَّ الموتَ يَهُونُ في سبيل مكارم الأخلاق ، يقول : (الطويل)

وَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ يَهُونُ عَلَيهِمُ وُرُودُ المَنَايَا فِي سَبِيلِ المَكَارِمِ [199]
يَطِيرُونَ مَهْمَا ازْوَرَّ لِلدَّهْرِ جَانِبٌ بِأَجْنِحَةٍ مِنْ مَاضِيَاتِ العَزَائِمِ
وَمَا كُلُّ نَفْسٍ تَحْمِلُ الذُّلَّ ؛ إِنَّنِي رَأَيتُ احْتِمَالَ الذُّلِّ شَأْنَ البَهَائِمِ
إِذَا أَنَا لَمْ أَظْفَرْ بِزَادِ مُسَافِرٍ لَدَيكُمْ فَعِنْدَ النَّاسِ تُحْفَةَ قَادِمِ [200]

إِنَّ الحُرَّ لا يَحْتَمِلُ الذُّلَّ ، ولا يَرْضَى به ؛ فذلك شأن البهائم ، والاستغناءُ عن الناس سبيلُ القناعة ؛ فمن هَانَ عند قومٍ فليرحل عنهم ، ومَنْ ضَاقَ عَيشُهُ فِي بَلدٍ فليغادرها ؛ فالموتُ أهونُ من الذلّ .

الرَّحِيلُ عَنِ البَلَدِ عِنْدَ المُتَنَبِّي :

يَحْمِلُ القَلِقُ المُتَنَبِّي على مغادرة الوطن ؛ فيطرق أبواب المدن واحدةً بعد أخرى ؛ فنراه دائمَ الرَّحِيلِ والتَّنَقُّل ، لا يستقرُّ في بلدٍ حتى يفارقه إلى آخر ؛ بسبب الحُسَّاد ، الذين يُنَغِّصُونَ عيشه ، يقول : (الوافر)

أَلِفْتُ تَرَحُّلِي ، وَجَعَلْتُ أَرْضِي قُتُودِي ، وَالغُرَيرِيَّ الحُلالا
فَمَا حَاوَلْتُ فِي أَمْرٍ مُقَامًا وَلا أَزْمَعْتُ عَنْ أَرْضٍ زَوَالا [201]

ويهاجر لطلب المَجْدِ لو ضَاقَتْ عَنْهُ بِلادُهُ ، يقول : (الطويل)

وَمَا بَلَدُ الإِنْسَانِ غَيرُ المُوَافِقِ وَلا أَهْلُهُ الأَدْنَونَ غَيرُ الأَصَادِقِ [202]

ويقول : (الطويل)

غَنِيٌّ عَنِ الأَوطَانِ لا يَسْتَفِزُّنِي إِلَى بَلَدٍ سَافَرْتَ عَنْهُ إِيَابُ [203]

إنه غَنِيٌّ عن وطنه إذا فارقه بالبلد الذي يصير فيه ، وعن مستقره بالموضع الذي يَقْدُمُ عليه ؛ لأنَّه شريفُ الخِصَال ، مشهور الحال ؛ فحيث حَلَّ فهو جليل القدر ، رفيع الذكر ، لا يلحقه أسف على موضعٍ ينتقل منه .

ويشير إلى عدم استقراره في مكانٍ واحدٍ لِبُعْد هِمَّتِهِ ؛ كالسيف الحادّ إذا كَثُرَ سَلُّه وإغماده أُكِلَ جَفْنُهُ : (الطويل)

فَإِمَّا تَرَينِي لا أُقِيمُ بِبَلْدَةٍ فَآفَةُ غِمْدِي فِي دُلُوقِيَ مِنْ حَدِّي [204]

ويُهَدِّد سيف الدولة بالرحيل بحثًا عَمَّنْ يُقَدِّره ، ويعرف مكانته ، ويقول إِنَّهُ إِنْ قَصَدَ مِصْر فسوف يندم الأول على مفارقته له ، ثم يؤكد أنه إذا رَحَلَ الرَّاحِلُ عن قومٍ وهم قادرون على إسعاف رغبته وأغفلوه حتى تَرَحَّل عنهم ؛ فهم الذين أخرجوه ، يقول : (البسيط)

لَئِنْ تَرَكْنَ ضُمَيرًا عَنْ مَيَامِنِنَا لَيَحْدُثَنَّ لِمَنْ وَدَّعْتُهُمْ نَدَمُ

إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَومٍ وَقَدْ قَدَرُوا أَلاَّ تُفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمُ [205]

أَلِفَ المُتَنَبِّي التَّرْحَال من مكانٍ إلى آخر ، لأنه عندما يشعر بالإهانة في بلد ، يغادرها إلى غيرها ويرحل عنها بحثًا عن عِزَّتِهِ .

الرَّحِيلُ عَنِ البَلَدِ عِنْدَ شُعَرَاءِ الأَنْدَلُسِ :

يُصَرِّحُ أبو عبد الله بن الحَنَّاط أنه لم يُفَارِقْ بَلَدَهُ عن قِلًى ، ولكنه أشفق على نفسه مِن الدفن حيًّا ؛ مِنْ جَرَّاء خُمُوله : (الطويل)

وَمَا عَنْ قِلًى فَارَقْتُ تُرْبَةَ أَرْضِكُمْ وَلَكِنَّنِي أَشْفَقْتُ فِيهَا مِنَ الدَّفْنِ[206]

ويرحل غانم بن الوليد بن عمر الأُشونيّ عن البلد الذي نَالَهُ الخَسْفَ فيه ، يقول : (الكامل)

وَإِذَا الدِّيَارُ تَنَكَّرَتْ حَالاتُهَا فَدَعِ الدِّيَارَ ، وَأَسْرِعِ التَّحْوِيلا

لَيْسَ المُقَامُ عَلَيْكَ حَتْمًا وَاجِبًا فِي بَلْدَةٍ تَدَعُ العَزِيزَ ذَلِيلا

لا يَرْتَضِي حُرٌّ بِمَنْزِلِ ذِلَّةٍ لَوْ لَمْ يَجِدْ في الخَافِقَينِ مَقِيلا [207]

ويُنْذِرُ ابن زيدون أبا الحَزْم بن جَهْور أنه إنْ لم يَنَلْ ما يستحقه من الإكرام والتبجيل ؛ فسيرحل إلى مكانٍ آخر يُكْرَمُ فيه ، يقول : «لَعَمْرُكَ مَا جَهِلْتُ أَنَّ صَرِيحَ الرَّأْيِ أَنْ أَتَحَوَّلَ إِذَا بَلَغَتْنِي الشَّمْسُ ، ونَبَا بِيَ المَنْزِلُ ، وأَصْفَحَ عَنِ المَطَامِعِ التِّي

تُقَطِّعُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ » [208] ، ويهَدِّدَه بأنه سيأوي إلى ظلِّ مَلِكٍ آخر يَعْرِفُ قَدْرَهُ ، ويُعْلِي مكانه ، يقول : (من الطويل)

فَإِنْ تُمْنَ لِي مِنْكَ الأَمَانِي فَشِيمَةٌ لِذَاكَ الفَعَالِ القَصْدِ ، وَالخُلُقِ الرَّسْلِ
وَإِلا جَنَيتُ الأُنْسَ مِنْ وَحْشَةِ النَّوَى وَهَولِ السُّرَى بَينَ المَطِيَّةِ وَالرَّحْلِ
سَيُعْنَى بِمَا ضَيَّعْتَ مِنِّيَ حَافِظٌ وَيُلْفَى لِمَا أَرْخَصْتَ مِنْ خَطَرِي مُغْلِي[209]

وأشار الناصحونَ عليه بأن يُهَاجِرَ عن قُرْطُبَة ، إلى مكانٍ آخر يَجِدُ فيه الإكرام الذي يَلِيقُ به ، يقول : (الطويل)

يَقُولُونَ : شَرِّقْ أَو فَغَرِّبْ صَرِيمَةً إِلَى حَيثُ آمَالُ النُّفُوسِ نِهَابُ [210]

وشَبَّهَ نَفْسَهُ بالأسد الجريء الذي يَلْبَدُ لفريسته استعدادًا للوثوب عليها في قصيدته التي أرسلها من سجنه لصديقه أبي حفص بن بُرْد الأصغر : (مجزوء الرمل)

يَلْبَدُ الوَرْدُ السَّبَنْتِي وَلَهُ بَعْدُ افْتِرَاسُ [211]

في البيت تهديدٌ خفي ؛ فهو أسدٌ ضارٍ يَسْكُنُ حينًا ، ثُمَّ يَنْقَضُّ على فريسته .

ويؤكد أبو عيسى بن لَبُّون (ت488هـ) أنه إن لم ينل عِزَّته في مكان يَشُدُّ رحاله سريعًا إلى مكانٍ آخر ، ويَمْضِي في طريقه دُونَ أَنْ يَسْمَعَ نُصْحَ النَّاصِحِينَ ؛ فتراه كالشمسِ تبدو للعيون صباحًا في المشرق ، وفي الأصيل تجدها في الغرب ، يقول : (الطويل)

وَكُنْتُ إِذَا مَا بَلْدَةٌ لِي تَنَكَّرَتْ شَدَدْتُ إِلَى أُخْرَى مَطِيَّ إِبَائِي
وَسِرْتُ وَلا أَلْوِي عَلَى مُتَعَذِّرٍ وَصَمَّمْتُ لا أُصْغِي إِلَى النُّصَحَاءِ
كَشَمْسٍ تَبَدَّتْ لِلعُيُونِ بِمَشْرِقٍ صَبَاحًا ، وَفِي غَرْبٍ أَصِيلَ مَسَاءِ [212]

ويقول ابن سَارَة الشَّنْتَرِينيّ (ت517هـ) إِنَّ مَقَامَ الأَحْرَارِ بِأَرْضِ الهَوَانِ هُوَ العَجْزُ بِعَينِهِ : (مُخَلَّع البسيط)

مُقَامُ حُرٍّ بِأَرْضِ هُونٍ عَجْزٌ لَعَمْرِي مِنَ المُقِيمِ
سَافِرْ فَإِنْ لَمْ تَجِدْ كَرِيمًا فَمِنْ لَئِيمٍ إِلَى لَئِيمِ [213]

ويؤكد ابن حَمْدِيس أنه إِنْ ضَاقَ العَيشُ فِي مَكَانٍ ؛ فإنه لا بُدَّ أَنْ يَتَّسِعَ في مكانٍ آخر : (الطويل)

وَإِنْ ضَاقَ بِالحُرِّ المَجَالُ بِبَلْدَةٍ فَكَمْ بَلْدَةٍ فِيهَا المَجَالُ رَحِيبُ [214]

ويقول أيضًا : (الوافر)

وَإِنْ كَانَ الثَّوَاءُ عَلَيكَ دَاءً فَبُرْؤُكَ فِي نَوًى تُمْطِي الرِّكَابَا [215]

ويقول أبو الحكم أحمد بن هردوس (ت572 أو573هـ) : (الوافر)

إِذَا ضَاقَتْ عَلَيكَ فَوَلِّ عَنْهَا وَسِرْ فِي الأَرْضِ وَاخْتَبِرِ العِبَادَا
وَلا تُمْسِكْ رِحَالَكَ فِي بِلادٍ غَدَوتَ بِأَهْلِهَا خَبَرًا مُعَادَا [216]

إذا ذَاقَ المَرْءُ الذُّلَّ في بلدة فعليه أنْ يُغَادِرَها ؛ لأنَّ الحُرَّ لا يرضى الإقامة في منزل الذُّلِّ ؛ فإذا كان الثَّوَاءُ داءً ؛ فإنَّ النوى هو الدواء .

هِجَاءُ النَّاسِ عِنْدَ المُتَنَبِّي :

يسيطر على المُتَنَبِّي إحساسٌ عميق بالسُّخط على الزمان وأهله ؛ فهو يشكُو الناسَ ، وتغيُّر أخلاقهم ، وفساد أعمالهم ، ويؤمن بأن النفس البشريَّة جُبِلَتْ على الفساد والإفساد ، ويقول إنه يعيش في زَمَنٍ يَسُودُ فيه السُّفَهَاء ، ويتعرض الأفاضل والكرماء إلى المِحَن والمصائب ؛ حَتَّى صَارَ العَالِمُ غبيًّا ، والحَازِمُ وغدًا ، والكَرِيمُ كلبًا ، والبَصِيرُ أَعْمَى ، والشُّجَاعُ قِرْدًا ، يقول : (الطويل)

أَذُمُّ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أُهَيلَهُ فَأَعْلَمُهُمْ فَدْمٌ ، وَأَحْزَمُهُمْ وَغْدُ
وَأَكْرَمُهُمْ كَلْبٌ ، وَأَبْصَرُهُمْ عَمٍ وَأَسْهَدُهُمْ فَهْدٌ ، وَأَشْجَعُهُمْ قِرْدُ [217]

ويقول في رثاء فاتك : (البسيط)

مَا زِلْتُ أُضْحِكُ إِبْلِي كُلَّمَا نَظَرَتْ إِلَى مَنِ اخْتَضَبَتْ أَخْفَافُهَا بِدَمِ
أُسِيرُهَا بَينَ أَصْنَامٍ أُشَاهِدُهَا وَلا أُشَاهِدُ مِنْهَا عِفَّةَ الصَّنَمِ [218]

إنه يُسَيِّرُ دابته بين أصنامٍ كالجَمَاد مُطَاعِينَ لا اهتزازَ فيهم للكرم ، ولا أريحية للجُود ، والصنم أفضل منهم ؛ لأنهم ليست لهم عِفَّة الصنم .

وهو غيرُ راضٍ عن أهل عصره ، ويُسَفِّهُ نفسه في دعوتهم إلى الخير ؛ لأنهم لا يعقلون ، يقول : (البسيط)

غَيرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا ، أَو حَدَّثُوا شَجُعُوا
أَهْلُ الحَفِيظَةِ إِلاَّ أَنْ تُجَرِّبَهُمْ وَفِي التَّجَارِبِ بَعْدَ الغَيِّ مَا يَزَعُ [219]

ومن يَعْرِفُ الأَيَّامَ معرفته بها وبأهلها ، يَقْتُلُ النَّاسَ غير رَاحِمٍ لهم ؛ لأنهم إذا ظَفِرُوا به لم يرحموه ، وهو غيرُ آثمٍ فيما يفعل بهم ، ويَظْهَرُ حِقْدُهُ الشديد على الدنيا وأهلها ، وذلك في قوله : (رَوَّى رُمْحَهُ غَيرَ رَاحِمٍ) [220] ؛ الذي يكشف عن رغبة شديدة في الانتقام منهم بقتلهم جميعًا دون رحمة ، وكأن رُمْحَهُ عَطْشَى ، وهو يريد إشباعها من دِمَاءِ الناس حِقْدًا عليهم ، وكراهيةً لهم .

وهو يَرَى أُنَاسًا ، ولكن محصوله على غنمٍ ؛ لأنهم لا عقولَ لهم كالأنعام ، يقول : (البسيط)

أَرَى أُنَاسًا وَمَحْصُولِي عَلَى غَنَمٍ وَذِكْرَ جُودٍ وَمَحْصُولِي عَلَى الكَلِمِ[221]

ويقول : (المنسرح)

وَرُبَّمَا يَشْهَدُ الطَّعَامَ مَعِي مَنْ لا يُسَاوِي الخُبْزَ الذِي أَكَلَهْ [222]

ويرى أَنَّ مَنْ حوله مِنَ النَّاسِ جماعة كالبهائم ؛ فإذا قال مَنْ أَنْتُم ؟ فقد أخطأ في القول ؛ لأنه خَاطَبَ ما لا يعقل بما يُخَاطَبُ به العاقل : (البسيط)

حَولِي بِكُلِّ مَكَانٍ مِنْهُمُ خِلَقٌ تُخْطِي إِذَا جِئْتَ فِي اسْتِفْهَامِهَا بِمَنِ [223]

يهجو المُتَنَبِّي الناسَ لأنَّهم يَتَّسِمُونَ بالغَبَاء والخِسَّة والغَدْر والحُمْق والجُبْن والبُخْل ؛ فهم يستحقون القتل بلا رحمة ، ويُخْطِئُ مَنْ يَظُنُّ أنهم عاقلون .

هِجَاءُ النَّاسِ عِنْدَ شُعَرَاءِ الأَنْدَلُسِ :

يتوجس شُعَرَاءُ الأَنْدَلُسِ من الناس ، ويَفِرُّون من لقائهم ؛ لأنه لا يرونَ إلا الشَّرّ في خلطتهم ، ولا يجنونَ إلا الندم في مصاحبتهم ؛ فنجد أَبُا عَامِر بن شُهَيد يَنْقِمُ على أهل زمانه الذين لا يُقَدِّرُونَهُ ، ويُطْلِقُ على زمنهم اسم (دهر الأراذل) ، يقول : (الطويل)

كَأَنَّ الدُّجَى هَمِّي وَدَمْعِي نُجُومُهُ تَحَدَّرَ إِشْفَاقًا لِدَهْرِ الأَرَاذِلِ

هَوَتْ أَنْجُمُ العَلْيَاءِ إِلاَّ أَقَلَّهَا وَغِبْنَ بِمَا يَحْظَى بِهِ كُلُّ عَاقِلِ

وَأَصْبَحْتُ فِي خَلْفٍ إِذَا مَا لَمَحْتُهُمْ تَبَيَّنْتَ أَنَّ الجَهْلَ إِحْدَى الفَضَائِلِ[224]

وقد انعدم عند ابن وَهْبُون مَنْ يَثِق بوفائه فقال : (البسيط)

قَلَّ الوَفَاءُ فَمَا تَلْقَاهُ فِي أَحَدٍ وَلا يَمُرُّ لِمَخْلُوقٍ عَلَى بَالِ[225]

ويقول إِنَّ مَنْ يغترّ بابتسام الناس ؛ فإنه لا بُدَّ أن يكون مُصَابًا في عقله : (الطويل)

وَمَنْ غَرَّهُ مِنْ ذَا الأَنَامِ تَبَسُّمٌ فَبِالعَقْلِ قَدْ أَضْحَى أَحَقَّ مُصَابِ [226]

وينصح أبو بكر بن عَطِيَّة (ت518هـ) بالاستئناس بالذئب ، والحَذَر من الناس ، يقول : (الرمل)

كُنْ بِذِيبٍ صَائِدٍ مُسْتَأْنِسًا وَإِذَا أَبْصَرْتَ إِنْسَانًا فَفِرْ

إِنَّمَا الإِنْسَانُ بَحْرٌ ، مَا لَهُ سَاحِلٌ ؛ فَاحْذَرْهُ إِيَّاكَ الغَرَرْ

وَاجْعَلِ النَّاسَ كَشَخْصٍ وَاحِدٍ ثُمَّ كُنْ مِنْ ذَلِكَ الشَّخْصِ حَذِرْ [227]

لقد غَلَبَتْ سِمَةُ الجَهْلِ على الناس ، ولا تكاد عيونُ الشعراءِ تلمح شيئًا جميلاً فيهم ؛ فكُلّ اخْتِبَارٍ لهم يكشف عُيُوبَهُم ، على نحو ما يُصَوِّرُه ابن خَفَاجَة بقوله : (البسيط)

دعْ عَنْكَ مِنْ لَومِ قَومٍ لَسْتَ تَخْبُرُهُمْ إلاَّ تَكَشَّفَ سِتْرُ الغَيبِ عَنْ عَيبِ
عُوجٌ عَلَى الدَّهْرِ هُوجٌ غيرَ أَنَّهُمُ سُودٌ مِنَ الجَهْلِ بِيضَانٌ مِنَ الشَّيبِ [228]

لقد غَاضَ الوَفَاءُ وانمَحَى أَثَرُهُ ؛ لذا لا بُدَّ مِن الحَذَرِ من الناس وكيدهم ، فَإِنَّ من يكون مَقَالُهُ زُور ، ووُدُّهُ مَقْت لا يستحق أَنْ يُعَاشَرَ ، والاجتناب أولى به .

هِجَاءُ المُلُوكِ عِنْدَ المُتَنَبّي :

وُلِدَ المُتَنَبّي في « بيئة كان الدَّمُ يصبغها من حينٍ إلى حين ، كان الدَّمُ يَصْبِغُهَا ثُمَّ لا يكاد يجف حتى يُسْفَك دَمٌ آخر ، ولم يكن الدم وَحْدَهُ يصبغها ، وإنما كان يصبغها صِبْغٌ آخر ليس أقل نُكْرًا من سفك الدم ، هو النَّهْب والسَّلْب ، واستباحة الأعراض ، وانتهاك الحرمات ، والاستخفاف بقوانين الخُلُق والدين » [229] .

وكانت الدولة الإسلاميَّة في القرن الرابع الهجريّ تتقسَّمَها النزعاتُ والأهواءُ ، وانتشرت الثوراتُ والفِتَن في كل ناحية ، وقد تَأَثَّرَ المُتَنَبّي بهذه الأحوال ، وظَهَرَ أثرُها قويًّا في شعره الثائر .

لقد نشأ في مجتمعٍ يَمُوجُ بالفتن والاضطرابات والصراعات المذهبيَّة والسياسيَّة والفكريَّة والاجتماعيَّة ؛ مِمَّا وَلَّدَ في نفسه ، التي تَتُوق إلى الأصالة العربيَّة ؛ سخطًا على الحُكَّام العرب ، والواقع العربيّ المؤلم ، والشخصيَّة العربيَّة التي فَقَدَتْ كثيرًا من أصالتها ، وتَجَلَّتْ ثورته في عصبيته الشديدة للقوميَّة العربيَّة ، التي ظَلَّ شَغِيًّا بها طوال حياته ؛ فهو القائل يستنهض هِمَم العرب ويستثير نخوتهم العربيَّة : (المنسرح)

وَإِنَّمَا النَّاسُ بِالمُلُوكِ وَمَا تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمُ
لا أَدَبٌ عِنْدَهُمُ وَلا حَسَبٌ وَلا عُهُودٌ لَهُمْ وَلا ذِمَمُ
فِي كُلِّ أَرْضٍ وَطِئْتُهَا أُمَمُ تُرْعَى بِعَبْدٍ كَأَنَّهُمْ غَنَمُ
يَسْتَخْشِنُ الخَزَّ حِينَ يَلْبَسُهُ وَكَانَ يُبْرَى بِظُفْرِهِ القَلَمُ [230]

وليس من شك في أن أسف المُتَنَبّي على أحوال الأمة الإسلاميَّة وأحوال حكامها الضعاف ، آنذاك ، هو الذي دفع به إلى الثورة على مُلُوك العرب والعجم ، وتوعُّدهم بالحرب والتأديب معًا ، وكان لا بُدَّ لرجل مثل المُتَنَبّي أَنْ يتحول طُمُوحه إلى ثورةٍ عارمة تجتاح كل العوائق والحدود والفواصل ، ولا سيما في مجتمع مثل مجتمعه ضَاعَ فيه الحَقّ ، وتَحَكَّمَت الأعاجم في العرب ، ووَرِثَ العبيدُ المُلْكَ ، يقول : (البسيط)

لَقَدْ تَصَبَّرْتُ حَتَّى لاتَ مُصْطَبَرٍ ... فَالآنَ أُقْحَمُ حَتَّى لاتَ مُقْتَحَمِ
لأَتْرُكَنَّ وُجُوهَ الخَيلِ سَاهِمَةً ... وَالحَرْبُ أَقْوَمُ مِنْ سَاقٍ عَلَى قَدَمِ
وَالطَّعْنُ يُحْرِقُهَا ، وَالزَّجْرُ يُقْلِقُهَا ... حَتَّى كَأَنَّ بِهَا ضَرْبًا مِنَ اللَّمَمِ
بِكُلِّ مُنْصَلِتٍ مَا زَالَ مُنْتَظِرِي ... حَتَّى أَذَلْتُ لَهُ مِنْ دَولَةِ الخَدَمِ [231]

إِنَّ البُرْكَانَ تشتدُّ ثورته ، ويَلْفِظُ حُمَمه حارَّة مُحْرِقَة ، تُلْهِبُ كُلَّ مَنْ تُصِيبه ، لا تُفَرِّق بين أحدٍ ؛ فنرى المُتَنَبِّي ينهج نَهْجَ القرامطة في الثورة ، مِنْ حَيثُ الجُرْأَة وسفك الدماء والأخذ بكل أسباب القُوَّة في تغيير الواقع ، يقول : (البسيط)

شَيخٌ يَرَى الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ نَافِلَةً ... وَيَسْتَحِلُّ دَمَ الحُجَّاجِ فِي الحَرَمِ
تُنْسِي البِلادَ بُرُوقَ الجَوِّ بَارِقَتِي ... وَتَكْتَفِي بِالدَّمِ الجَارِي مِنَ الدِّيَمِ [232]

ثم ينفجر بركان الثورة الكامنة في أعماقه ؛ فيقول : (البسيط)

رِدِي حِيَاضَ الرَّدَى يَا نَفْسُ وَاتَّرِكِي ... حِيَاضَ خَوفِ الرَّدَى لِلشَّاءِ وَالنَّعَمِ
إِنْ لَمْ أَذَرْكِ عَلَى الأَرْمَاحِ سَائِلَةً ... فَلا دُعِيتُ ابْنَ أُمِّ المَجْدِ وَالكَرَمِ
أَيَمْلِكُ المُلْكَ وَالأَسْيَافُ ظَامِئَةٌ ... وَالطَّيرُ جَائِعَةٌ لَحْمٌ عَلَى وَضَمِ
مَنْ لَو رَآنِي مَاءً مَاتَ مِنْ ظَمَإٍ ... وَلَو مَثَلْتُ لَهُ فِي النَّومِ لَمْ يَنَمِ [233]

يقول لنفسه : رِدِي حِيَاضَ الموت ؛ فإنَّ المَوتَ فِي العِزِّ حياةٌ ، واتركي حياض خَوفِ الرَّدَى للحيوان الذي لا يَعْقِل ؛ فإِنْ لَمْ أحضر الحرب ؛ حتى يسيل الدمُ من جسدي على الرِّمَاح ؛ فلا دُعِيتُ أخَا المَجْدِ والكَرَمِ ، أَيَمْلُكُ المُلْكَ قومٌ أَذِلاء كاللَّحْمِ على الوَضَمِ ، وأسيافُنَا ظامئة إلى دمائهم ، والطير جائعة ، ولا نشبعها منهم ، وميعاد الأعداء غدًا أحاربهم ، وأقود إليهم الجيوش .

إِنَّ أَمْرَ البِلادِ وواقعها لا يعجبه ؛ فالأمراء الضعفاء يتولون أمور المسلمين ، وهُمْ لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا ؛ لذا توعَّد أولئك الحُكَّام الضعفاء – الذين أضاعوا مجد الأمة بضعفهم وفتورهم– بالوَيل والثبور ، يقول : (البسيط)

مِيعَادُ كُلِّ رَقِيقِ الشَّفْرَتَينِ غَدًا ... وَمَن عَصَى مِنْ مُلُوكِ العُرْبِ وَالعَجَمِ
فَإِنْ أَجَابُوا فَمَا قَصْدِي بِهَا لَهُمُ ... وَإِنْ تَوَلَّوا فَمَا أَرْضَى لَهَا بِهِمِ [234]

لقد بَلَغَتْ نَفْسُه حدًّا كبيرًا من التوتُّر والانفعال ؛ جعله يثور على ملوك عصره الذين ضيعوا هَيْبَة الخلافة الإسلاميَّة ، واتَّسَمُوا بالضعف والخنوع ، وغَفَلُوا عن أُمُورِ البِلاد والعِبَاد ، يقول : (الوافر)

وَدَهْرٌ نَاسُهُ نَاسٌ صِغَارٌ ... وَإِنْ كَانَتْ لَهُمُ جُثَثٌ ضِخَامُ
أَرَانِبُ غَيرُ أَنَّهُمُ مُلُوكٌ ... مُفَتَّحَةٌ عُيُونُهُمُ نِيَامُ [235]

ونلاحظ المُفَارَقَة اللاذِعَة في البيتينِ ؛ فعلى الرغم من ضخامة الجسم فَإِنَّ النُّفُوسَ حقيرة ، والعقول صغيرة ، وعلى الرغم من تفتُّحِ العُيُون ؛ فهي لا تُؤَدِّي وظيفتها ، ولا تُبْصِرُ الحقيقة ؛ فكأنها نائمة .

إنه يهدف إلى إعادة المجد العربيّ ، وإزالة الحُكَّام الطاغينَ من المَوَالِي ، وقَمْع الفِتَن التي قام بها العلويون والفاطميون في البلاد [236] ؛ لذا ارتفعت عَقِيرته بهجاء الملوك : (البسيط)

وَلا أُعَاشِرُ مِنْ أَمْلاكِهِمْ أَحَدًا إِلاَّ أَحَقَّ بِضَرْبِ الرَّأْسِ مِنْ وَثَنِ [237]

لا أخالطُ أحدًا من ملوكهم إلا وهو يستحق القتل ؛ كالصنم الذي يستحق أن يُكْسَر ويُفْصَل بين رأسه وبدنه .

ويَعْرِضُ في قصائده واقع العصر ، ويستفزُّ الناسَ كي يعملوا بِجِدٍّ لتغييره ، يقول في هجاء كافور : (الطويل)

صَحِبْتُ مُلُوكَ الأَرْضِ مُغْتَبِطًا بِهِمْ وَفَارَقْتُهُمْ مَلآنَ مِنْ حَنَقٍ صَدْرَا [238]

يصف حُكَّام عَصْرِهِ بأنهم غافلين عمَّا حولهم ، عاجزينَ عن سياسة الدولة ، وهم يستحقون أن تُضْرَبَ رءوسهم وتُطَاحُ أعناقهم ، ولا يكتفي بذلك بل يُهَدِّدُ كُلَّ مَنْ عَصَى مِنْ مُلُوكِ العُرْبِ وَالعَجَمِ أنه سوف يثور عليهم ويُهَدِّد عرشهم ، وقد رأى أنَّ كثيرًا من المُتَغَلِّبِينَ في زمانه لا يفوقونه في العقل والسبق ، بل مِنْهُمُ العبيدُ الذينَ جَرَى عليهم الرّق ؛ لِذَا حدَّثته نفسه بطلب المُلْك ، وإِنْ لَقِيَ في سبيله الموت .

هِجَاءُ المُلُوكِ عِنْدَ شُعَرَاءِ الأَنْدَلُسِ :

كان للشعر الأندلسيُّ دورٌ في النقد والاستنكار والتحذير ؛ فقد جَاهَرَ الشعراءُ مُلُوكَ الأندلس بالعَدَاوة ؛ فنرى الأعمى التُّطَيلِيّ يشكو زمانه ، وسيادة الظالمين الجُهَّال ، ويشكو ما في مدينته إِشْبِيلِيَة ، ويُحَرِّضُ أهلها على الثورة ضدّ ظُلم الحكام ، يقول : (المتقارب)

وَيَا رُبَّ إِلْبٍ علَى المُسْلِمِينَ زَوَى الحَقَّ عَنْ أَهْلِهِ فَانْزَوَى
هُوَ الكَلْبُ أَسَّدَه جَهْلُهُ وَطَالَ فَخَالُوهُ لَيثَ الشَّرَى
وَرَاعَهُمُ زَأْرُهُ فِيهِمُ وَلَو كَانَ فِي غَيرِهِمْ مَا عَوَى
أَيَا أَهْلَ حِمْصٍ ، وَقِدْمًا دَعَوتُ وَهَلْ تَسْمَعُونَ إِلَى مَنْ دَعَا
يَقِلُّ لأَقْدَارِكُمْ كُلُّ شَيءٍ فَكَيفَ رَضِيتُمْ بِدُونِ الرِّضَا
أَلا قَدْ لَحَنْتُ لَكُمْ فَاسْمَعُوا وَحَاجَيتُ إِنْ كَانَ يُغْنِي الحِجَا [239]

وأثار تسلُّطُ اليهودِ أبا إسحاق الإلبيريّ (ت460هـ) أيام وزارة ابن النغريلة اليهوديّ في غَرْنَاطة ؛ مِمَّا جعله ينظم قصيدة تُحَرِّض باديس بن حَبُّوس (ت465هـ) وأهل غَرْنَاطة على التخلُّص من تسلُّط ذلك اليهوديّ وقومه ، يقول فيها : (المتقارب)

أَلا قُلْ لِصِنْهَاجَةٍ أَجْمَعِينْ بُدُورِ النَّدِيّ وَأُسْدِ العَرِينْ
لَقَدْ زَلَّ سَيِّدُكُمْ زَلَّةً تَقَرُّ بِهَا أَعْيُنُ الشَّامِتِينْ
تَخَيَّرَ كَاتِبَهُ كَافِرًا وَلَو شَاءَ كَانَ مِنَ المُسْلِمِينْ
فَعَزَّ اليَهُودُ بِهِ وَانْتَخَوا وَتَاهُوا وَكَانُوا مِنَ الأَرْذَلِينْ
وَنَالُوا مُنَاهُمْ وَجَازُوا المَدَى فَحَانَ الهَلاكُ وَمَا يَشْعُرُونْ (240)

وثار السُّمَيسِرُ على الفساد ، وسَعَى إلى تغيير الواقع ، ودعا إلى الإطاحة بملوك الطوائف ؛ لأنهم تحالفوا مع النصارى في صراعهم الداخليّ مع بعضهم بعضًا ، يقول : (مجزوء الكامل)

نَادِ المُلُوكَ وَقُلْ لَهُمْ مَاذَا الذِي أَحْدَثْتُمُ
أَسْلَمْتُمُ الإِسْلامَ فِي أَسْرِ العِدَى وَقَعَدْتُمُ
وَجَبَ القِيَامُ عَلَيكُمُ إِذْ بِالنَّصَارَى قُمْتُمُ
لا تُنْكِرُوا شَقَّ العَصَا فَعَصَا النَّبِيّ شَقَقْتُمُ (241)

ولابن عَبْدُون (ت529هـ) قصيدة يَتَذَمَّر فيها من مُلُوكِ زمانه ، ولكنا عندما نقرؤها نلمس أن الدافع فيها ذاتيّ ، وأن ثورته إنما انفجرت لأنَّ الملوكَ أغفلوا شأنه ، يقول : (الوافر)

فَسَلْنِي عَنْ مُلُوكِ الأَرْضِ تَسْأَلْ خَبِيرًا فَاقْضِ حَقَّ الاسْتِمَاعِ
عَرَضْتُ عَلَيهِمُ نَفْسِي وَنَفْسِي لأَوضِحَ غَبْنَهُمْ عِنْدَ البِيَاعِ
فَمَا اتَّبَعُوا دَلِيلاً فِي اجْتِنَابِي وَلا سَلَكُوا سَبِيلاً فِي اصْطِنَاعِي (242)

وَقَفَ شعراء الأندلس موقفًا عدائيًّا من السلطة السياسيَّة ، فقد أهمل مُلُوكُ الأندلس مَصَالِحَ الرعيَّة ، وتقاعسوا عن الجِهَاد ، وكَثُرَ التناحُر والتنافُس فيما بينهم ، وانشغلوا باللهو والمُجُون ، والتفاخُر والتكاثُر ، وإرضاء أهوائهم ، وإشباع غرائزهم ونزواتهم ، واستعانوا بالنَّصَارى ؛ مما زَادَ النِّقْمَة على ملوك الأندلس .

مُصَاحَبَةُ الكِتَابِ عِنْدَ المُتَنَبِّي :

لم يَعُدْ المُتَنَبِّي يَثِق بأحد ؛ فابتعد عن الناس ، وصَحِبَ الكتابَ مُتَّخِذًا منه مُحَدِّثًا مُمْتِعًا ، وجليسًا مأمون الجانب ؛ فالكتاب خيرُ جَلِيسٍ لا يعرف الأذى ولا الشرّ ؛ فضلاً عن أنه يُفِيدُ صاحبه علمًا وأدبًا ، يقول : (الطويل)

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنَى سَرْجُ سَابِحٍ وَخَيرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ (243)

بعد عناءٍ طويل قاساه المُتَنَبِّي في معاملة الناس انتهى إلى أن أكثر شيء يُدْخِلُ السرورَ الطويلَ على قلبه هو ركوب الخيل ، وأفضل جليس وفيٍّ يصاحبه هو الكتاب .

مُصَاحَبَةُ الكِتَابِ عِنْدَ شُعَرَاءِ الأَنْدَلُسِ :

يُصَرِّحُ أبو إسحاق الإلبيريّ أنه لم يجد النعيم إلا في صحبة كتاب الله (عز وجل) ، ولم يجد الأُنْس – الذي يزيل وحشته – إلا في دفاتره التي يُدَوِّنُ فيها فنون العِلْم : (الكامل)

حَسْبِي كِتَابُ اللهِ فَهْوَ تَنَعُّمِي وَتَأَنُّسِي فِي وَحْشَتِي بِدَفَاتِرِي [244]

ويقول ابن الحَدَّاد (ت480هـ) مُفَضِّلاً الكِتَاب على الأصدقاء : (الخفيف)

ذَهَبَ النَّاسُ فَانْفِرَادِي أَنِيسِي وَكِتَابِي مُحَدِّثِي وَجَلِيسِي
صَاحِبٌ قَدْ أَمِنْتُ مِنْهُ مَلالاً وَاخْتِلالاً وَكُلَّ خُلْقٍ بَئِيسِ
لَيسَ فِي نَوعِهِ بِحَيٍّ ، وَلَكِنْ يَلْتَقِي الحَيُّ مِنْهُ بِالمَرْمُوسِ [245]

ويقول ابن وَهْبُون إنه لا يَقْبَلُ سميرًا له إلا الكِتَاب : (الطويل)

وَلَيسَ نَدِيمِي غَيرَ أَبْيَضَ صَارِمٍ وَلَيسَ سَمِيرِي غَيرَ شَخْصِ كِتَابِ [246]

ورأى أبو عيسى بن لَبُّون في بيته المتواضع روضةً مُزْدَانَة بالزهور والرياحين ، وفي كتابه خير صديق يأتمنه على الأسرار ، وفوق ذلك فإنه يُخْبِرُهُ بما جَرَى للأُمَم العاتية ، يقول : (البسيط)

مِنْ كِسْرِ بَيتِيَ لِي رَوضٌ ، وَمِنْ كُتُبِي جَلِيسُ صِدْقٍ عَلَى الأَسْرَارِ مُؤْتَمَنُ
أَدْرِي بِهِ مَا جَرَى فِي الدَّهْرِ مِنْ خَبَرٍ فَعِنْدَهُ الحَقُّ مَسْطُورٌ وَمُخْتَزَنُ [247]

ويقول ابن حَمْدِيس إنه لم يجد جليسًا وَفِيًّا إلا الكتاب : (الوافر)

وَقَدْ بُدِّلْتُ بَعْدَ سَرَاةِ قَومِي دِئَابًا فِي الصَّحَابَةِ لا صِحَابَا
وَأَلفَيتُ الجَلِيسَ عَلَى خِلافِي فَلَسْتُ مُجَالِسًا إلا كِتَابَا [248]

ويقول أبو القاسم البَلَوِيّ إنه – بعد أن يَئِسَ من الناس – لم يَعُدْ يطمئن إلا إلى صُحْبَة الكتاب : (الوافر)

يَئِسْتُ مِنَ الأَنَامِ فَمَا جَلِيسٌ يَعِزُّ عَلَى نُهَايَ سِوَى كِتَابِي [249]

ويقول أبو حَيَّان الغَرْنَاطِيّ (ت745هـ) إنه يسعد بمجالسة كُتُبه ، بعد أن عَدِمَ صَدِيقًا مُصَافِيًا : (البسيط)

وَصِرْتُ فِي البَيتِ وَحْدِي لا أَرَى أَحَدًا بَنَاتُ فِكْرِي وَكُتْبِي هُنَّ جُلاَّسِي [250]

ويقول أيضًا : (الطويل)

نَدَامَايَ كُتْبٌ أَسْتَفِيدُ عُلُومَهَا أَحِبَّايَ تُغْنِي عَنْ لِقَائِي الأَعَادِيَا

وَآنَسُهَا القُرْآنُ فَهْوَ الذِي بِهِ نَجَاتِي إِذَا فَكَّرْتُ أَوَ كُنْتُ تَالِيَا [251]

قَرَّرَ شعراء الأندلس – بعد أن يَئِسُوا من الأنام – أن يتخذوا الكتاب صاحبًا ، يأتنسون به ؛ فهو سَمِيرٌ لا يُمَلُّ منه ، فضلاً عن كونه نافعًا ، يُؤتَمَن على الأسرار ، ويُسْتَفَاد منه العلوم ، وآنس هذه الكتب القرآن الكريم الذي يُزِيلُ وَحْشَة النُّفُوس ، ويَشْرَحُ الصُّدُور .

الصَّمْتُ عِنْدَ المُتَنَبِّي :

الإحساس بمَضَاضَة الغَبْن جعل المُتَنَبِّي يحتقر الآخرين ، ويتجنب عتابهم ، ولا يراهم أهلاً لأن يتبادل معهم الكلام ؛ لذا يُؤثِرُ الصمت : (البسيط)

أَبْدُو فَيَسْجُدُ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِي ولا أُعَاتِبُهُ صَفْحًا وإِهْوَانَا [252]

ولذلك فهو لا يُهِينُ شعره بهجاء مَنْ لا يستحق الهجاء ؛ لأنَّ نفسه المتعالية تأبى أن تُهَانَ بهجاء إنسان ذليل ، يقول : (الوافر)

تُعَادِيْنَا لأَنَّا غيرُ لُكْنٍ وتُبْغِضُنَا لأَنَّا غَيرُ عُوْرِ

فلو كُنْتَ امْرَأً يُهْجَى هَجَوْنَا ولَكِنْ ضَاقَ فِتْرٌ عن مَسِيْرِ [253]

والمعنى : يرتفع الهجاء عن قدرك ؛ لأنَّك خسيس القدر ، والعداوة تقع منكَ لأَنَّا فُصَحَاء وأنت ألكن ، ونحن بُصَرَاء ، وأنت أعور .

ويصف حاله مع هؤلاء الخصوم ؛ فهو يَتَرَفَّعُ عن هجائهم ، ويجعل عتابهم الاجتناب ؛ فيقول : (الطويل)

لِسَانِي بِنُطْقِي صَامِتٌ عَنْهُ عَادِلٌ وَقَلْبِي بِصَمْتِي ضَاحِكٌ مِنْهُ هَازِلُ [254]

إذا نَطَقْتُ فلساني مُعْرِضٌ عنه ، مُنْصَرِفٌ عن مخاطبته ، وقلبي هازلٌ منه ؛ فلا أُهَاجِيه . وأشدّ الحُسَّاد عذابًا مَنْ تَتَنَزَّه عن مخاطبته ، وأعظمُ الأعداءِ غَيظًا مَنْ لا تُمَاثِلُهُ : (الطويل)

وَأَتْعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لا تُجِيبُهُ وَأَغْيَظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لا تُشَاكِلُ [255]

يُعَادي الشعراءُ المُتَنَبِّي بسبب فصاحته ونُبُوغه ، وهو يرَفَضَ هِجَاء مَنْ لا يستحق الهجاء ؛ فيلتزم الصمتَ ساخرًا منه ؛ مِمَّا يزيد غيظُه ؛ بسبب إهمال شأنه .

الصَّمْتُ عِنْدَ شُعَرَاءِ الأَنْدَلُسِ :

وجدنا عند شعراء الأندلس مَنْ أَعْلَنَ غَضَبَهُ في الصمت ، الذي هو أبلغ من كل كلام ؛ ورَفَضَ واقع المجتمع ؛ فاعتزل الناس ، وكأنه يُرَدِّد مع فيلسوف الوجوديَّة جان بول سارتر (Jean Paul Sartre) قوله : (الجحيم هم الآخرون!) ؛ فنراه صامتًا

لا يتكلم ؛ لأن وجود انفعالات وجدانيَّة قَوِيَّة يُقَلِّل من ميل الفرد إلى التحدُّث مع الآخرين .

وها هو ابن الحَدَّاد يُعْلِنُ أنه إذا اتَّبَعَ طريقَ الصَّمْتِ فذلك عن فَهْمٍ وفِطْنَة ؛ لأنَّ شعره فصيح ينفذ إلى أسماع البشر وقلوبهم : (الطويل)

وَلازَمْتُ سَمْتَ الصَّمْتِ لا عَنْ فَدَامَةٍ فَلِي مَنْطِقٌ للسَّمْعِ وَالقَلْبِ مَالِئُ [256]

ويُصَرّحُ ابن خَمِيس التِّلْمِسَانِيّ (ت 708هـ) بأنَّ اللسانَ حَقِيقٌ بالسجن الطويل ، وأَنَّ سَلامَةَ الإِنْسَانِ – في ذلك الزمان – في التزامه الصمت : (الوافر)

تَحَفَّظْ مِنْ لِسَانِكَ ، لَيسَ شَيءٌ أَحَقُّ بِطُولِ سِجْنٍ مِنْ لِسَانِ

وَكُنْ لِلصَّمْتِ مُلْتَزِمًا إِذَا مَا أَرَدْتَ سَلامَةً فِي ذَا الزَّمَانِ [257]

لقد رأى شُعَراءُ الأندلس النجاةَ والسلامةَ في التزام سمت الصمت ؛ فإنَّ العَاقِلَ مَنْ أَلْجَمَ فَاهُ بِلِجَام ، وسَجَنَ لِسَانَهُ طويلاً .

المبحث الثالث : الثُّنَائِيَّات الضِدِّيَّة في شعر مَضَاضَة الغَبْن :

اتسم الشعر الذي يُصَوِّر مَضَاضَة الغَبْن بنبرة تهكميَّة ، تدلُّ على ثورةٍ في نفس هؤلاء الشعِراء ؛ من جَرَّاء الصدمة النفسيَّة [258] التي أصيبوا بها نتيجة إخفاقهم فيما كانوا يَعْقِدُون عليه الآمال الكبيرة ، وخيبة ظَنِّهم فيما كانوا يتوقعون ؛ فقد سيطر عليهم الشعور بأنَّ كُلاً منهم يستحقُّ أكثر مِمَّا أَخَذَ ؛ مِمَّا أفضى إلى خَلْقِ ثُنَائيَّة ضِدِّيَّة (Binary oppositions) [259] جَدَلِيَّة في نفوسهم – يمكن تسميتها بثنائيَّة الصراع بين (الأمل والخَيبة) ، (الرغبة والحرمان) – تَنَاثَرَتْ عَبْرَ شِعْرِهِم الذي يُصَوِّرُ أسباب مضاضة الغبن وآثارها ؛ تنفيسًا عن الصراع النفسيّ الداخليّ الذي يَكْمُنُ في نفوسهم ؛ لشعورهم بالمعاناة التي تكشف التناقُض وتُعَرِّيه ، لقد صاروا أكثر قدرة على رؤية مظاهر التناقُض في الحياة بوصفها جزءًا من بنية الوجود القائم على الصراع .

وظهرت نزعة تشاؤميَّة أَدَّتْ إلى السخريَة من كل شيء ، « إنه ضحك من السُّقُوط والانهيارات ، وعدم تحقُّق للأحلام الكُبْرَى والأمنيات ، ومن ثَمَّ يكاد يكون ضحكًا عبثيًّا زاخرًا بعلامات وأصول عديدة دالَّة على شعور الضاحكينَ بلا جدوى أي شيء في الواقع » [260] ، ويُعَدُّ استخفافُ المرء بالدنيا مظهرًا « للشعور الحادّ بفراغ المُتْعَة وزوالها ، ونتيجة للحَيرَة الشديدة التي مُنِيَ بها أمام أحداث الوجود والعَدَم ، والتناقُض الشديد بينها ، والردّ الصامت العاجز عن التساؤلات الحائرة عن سرّ الوجود وسرّ العَدَم ، وموقف الإنسان منها ، ودوره في البداية أو النهاية ، وعِلَّة ذلك كله » [261] .

وقد استطاع شعرهم أن يؤثر في النفوس ؛ لأنه صَدَرَ عن وجدانٍ صادق ، والشعر الصادق « هو وحده الذي يُوَلِّدُ في القارئ الذي يتناوله بالطريقة السليمة استجابةً لا تقل في الحرارة والنُّبْل والصفاء عن تجربة الشاعر نفسه »[262] .

وقد نجحت هذه المواقف الصعبة المتوالية في استفزازهم وإلهامهم في آنٍ واحد ، ومِنْ ثَمَّ عَبَّرُوا عن أصدق المشاعر الحزينة وألهبها ، وقد قَامَتْ سخريتهم على فكرة

المُقَابَلة بين : (حِرْمَان الفَاضِل وإِدْرَاك النَّاقِص) ، (فَقْر العَالِم وغِنَى الجاهل) ، (شقاء العاقل وسعادة الأحمق) ، (النَّحْس يصاحب النبلاء والسَّعْد يلازم الأوغاد) ، وهذه المفارقات الساخرة تكشف الواقع ، وتُظْهِر حقائق الحياة .

حِرْمَانُ الفَاضِلِ وَإِدْرَاكُ النَّاقِصِ عِنْدَ المُتَنَبّي :

يَصْطَفِي الزمانُ الأوغاد ، ويُمَيِّزُهُم بالدُّور الفاخرة ، والمَطَايَا الشريفة ، ويفتح أبواب الشرّ والأذى لفاضل الطبع ، وصاحب المُرُوءة . وقد وردت أمثال عربيَّة كثيرة تسخر من انقلاب الحال ، وتَحَوُّل حال الوضيع من الضعف والذُّلّ إلى العِزّ والقُوَّة ، مثل : (صَارَتِ البِئْرُ المُعَطَّلَةُ قَصْرًا مَشِيدًا) [263] ، و(كَانَ كُرَاعًا فَصَارَ ذِرَاعًا) [264] ، و(كَانَ عَنْزًا فَاسْتَنْيَسَ) [265] ، و(كَانَ سِنْدَانًا فَصَارَ مِطْرَقَةً) [266] .

وقد سَمَّى أبو حيان التوحيديّ (ت414هـ) مسألة (حرمان الفاضل وإدراك الناقص) مَلَكة المسائل في (الهوامل والشوامل) ، عندما طلب مِنْ صديقه مسكويه (ت421هـ) الحديث عن الظُّلْم ؛ فعَرَّفَهُ بأنه : « حرمان الفاضل وإدراك الناقص » [267] .

لقد شَعَرَ المُتَنَبّي بمَضَاضَة الغَبْن في بلاط سَيفِ الدولة – عندما بدأ الحُسَّاد يجتهدون في إفساد العلاقة بينه وبين الأمير – ولازمه هذا الشعور طَوَالَ فترة إقامته في مِصْر عند كافور – عندما رأى (العَبْدَ لِلحُرِّ مَالِكًا) [268] – وكان لهذا الإحساس عميقُ أثرٍ في نفسه ، وتَرَتَّبَ عليه موقفٌ فكريّ ، تَجَلَّى فيما أبدع من شعرٍ خالدٍ يُعَبِّر – بِصِدْقٍ – عن قسوة هذا الإحساس ؛ لذا جَاءَ شِعْرُهُ صرخةً حزينة ، تُعَبِّرُ عن لوعةٍ صادقة .

فهو – على الرغم مِمَّا يتمتع به من مواهب (العَقْل ، الفَهْم ، العِلْم ، الفَضِيلة ، المُرُوءة ، الحِلْم) – يُعَانِي من : (الحظّ العاثر ، الغَبْن ، الفقر ، الإخفاق ، الانزواء ، الذُّلّ ، المهانة ، الشقاء) ، وآخرون لا يملكون ما لديه من مواهب ، ومع ذلك يسعدون ، ويأخذون ما يزيد عن حقهم ، ويُكْرَمُون ، ويَنْعَمُونَ بالغِنَى والثراء .

وقد استقر هذا الشعور البغيض في نفسه ، ولازَمَهُ ؛ فرأى نفسه رجلاً فاضلاً ، له هِمَّةٌ عالية ، وعزمٌ ماض ، وإصرارٌ لا يعرف الفتور ، وموهبة شعرية غير مسبوقة ؛ لذا لا بُدَّ أن يحتل المناصب العالية ، وعندما لم يَنَلْ الجزاءَ الذي يُكَافِئُ مَوَاهِبَه ، أصيب بصدمة شديدة ، واحترق قَلْبُهُ بِنَارِ الحَسْرة ، وأخذ يُحَاوِلُ الانتقامَ مِمَّنْ بَخَّسَهُ حَقَّهُ ؛ فراح يفخر بنفسه أشد الفخر ، ويسخط على الناس كُلّ السخط .

وهو يرى في نفسه رِفْعَة المُلُوك وسُمُوهم ، وعَزْمهم وبَأْسهم ، وإِنْ كَانَ لسانُه لسانَ شاعرٍ لا يُبَارى ، ويلازمه إحساسٌ بأنه يَفُوق غيره ، وأن الجميع يَحْسُدُونه ،

ويُقَصِّرُونَ في حَقِّهِ ؛ فهو مُعَذَّبٌ دائمًا بطلب المجد ، الذي يعطيه وهج القوة ، ويملأ نفسَهُ غَيظًا (عَلَى الأَيَّامِ كَالنَّارِ فِي الحَشَا) [269] ، يقول : (الطويل)

تُحَقِّرُ عِنْدِي هِمَّتِى كُلَّ مَطْلَبٍ وَيَقْصُرُ فِي عَينِي المَدَى المُتَطَاوِلُ [270]

مِمَّا جَعَلَهُ (أَتْعَب خَلْقِ الله) [271] ؛ لأَنَّهُ (إِذَا عَظُمَ المَطْلُوبُ قَلَّ المُسَاعِدُ) [272] ، وهو يريد أنْ يَبْلُغَ (مَا لَيسَ يَبْلُغُهُ مِنْ نَفْسِهِ الزَّمَنُ) [273] ؛ لأنَّ (فُؤَادَهُ مِنَ المُلُوكِ) [274] ، و(لَذَّتهُ فِيمَا يَرَاهُ النَّاسُ غَايَةَ الأَلَم) [275] ؛ لذا جَابَ البلاد بحثًا عن مجده ، وهو يَطْلُبُ المَنْصِبَ الرفيع لا المال ، يقول في مدح كافور الإخشيديّ : (الطويل)

وَمَا رَغْبَتِي فِي عَسْجَدٍ أَسْتَفِيدُهُ وَلَكِنَّهَا فِي مَفْخَرٍ أَسْتَجِدُّهُ [276]

فإِنَّ طَمَعَهُ ليس له حدود ، وقَلْبُهُ بعيدٌ مرامه ، ليس له مدًى يقف عنده ، إنها نفسٌ تسعي دومًا لتحقيق غاياتها ، وتُلِحُّ علي صاحبها لإنجاز دورها البارز في الحياة ، يقول : (الطويل)

وَفِي الجِسْمِ نَفْسٌ لا تَشِيبُ بِشَيبِهِ وَلَو أَنَّ مَا فِي الوَجْهِ مِنْهُ حِرَابُ

لَهَا ظُفُرٌ إِنْ كَلَّ ظُفُرٌ أُعِدُّهُ وَنَابٌ إِذَا لَمْ يَبْقَ فِي الفَمِ نَابُ

يُغَيِّرُ مِنِّي الدَّهْرُ مَا شَاءَ غَيرَهَا وَأَبْلُغُ أَقْصَى العُمْرِ وَهْيَ كَعَابُ [277]

وإذا عَظُمَتْ النفوس ، وارتفعت الهِمَم ، سَهُلَ في مرادها الشديد ، وقَرُبَ البعيد ، وتَعِبَتْ الأجسام في طلب الأمجاد ، واسْتُكْرِهَ المُقَام ، يقول : (الخفيف)

وَإِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الأَجْسَامُ [278]

لقد شَعَرَ بالحسرة الشديدة عندما رأى نفسه خاملاً مُرَاقَبًا في بلاط كافور ، على الرغم من كونه فاضلاً ، يصلح للسيادة ، ويليق بالإمارة ، وينزع للمجد والمعالي ، ورأى غيره – مِمَّنْ يَقِلُّ عَنْهُ مَكَانَةً وَقَدْرًا – يُدْرِكُ مَأْرَبَهُ .

حِرْمَانُ الفَاضِلِ وَإِدْرَاكُ النَّاقِصِ عِنْدَ شُعَرَاءِ الأَنْدَلُسِ :

كم من شعراء الأندلس نُكِّلَ بهم وأحرقت كتبهم ، واتهموا بالزندقة والكفر والإلحاد ؛ لأنهم اختلفوا مع السلطان ، وخالفوه الرأي والموقف [279] ، وتعجَّبَ هؤلاء الفضلاء كيف يُورِثُ العِلْم الذُلّ ، ويُورِثُ الجَهْل العز ، وكيف يكون العالِمُ ذليلاً مُهَانًا ، والجاهلُ عزيزًا مُكْرَمًا !

وليس بدعًا أن نرى جعفر المُصْحَفِيّ يستنكر أنْ يَقِفَ العالِمُ صاغرًا يستجدي العطاءَ من اللُّؤَمَاء ، يقول : (الكامل)

حَسْبُ الكَرِيمِ مَذَلَّةً وَمَهَانَةً أَلاَّ يَزَالَ إِلَى لَئِيمٍ يَطْلُبُ [280]

وقد وصف أبو عَامِر بن شُهَيد نفسه بالعقل ، وجعل الجوزاء بعض منازله ، والمجد حسامه ، والسيادة ذابله ، وعلى الرغم من ذلك يعيش وسط الجُهَّال ، ويَصْبِرُ على مَحْضِ الأذى من أسافل ، يقول : (الطويل)

وَكَيفَ ارْتِضَائِي دَارَةَ الجَهْلِ مَنْزِلاً إِذَا كَانَتِ الجَوزَاءُ بَعْضَ مَنَازِلِي

وَصَبْرِي عَلَى مَحْضِ الأَذَى مِنْ أَسَافِلٍ وَمَجْدِي حُسَامِي ، وَالسِّيَادَةُ ذَابِلِي [281]

ويؤكد الفقيه عُمَر بن الحَسَن الهَوزَنِيّ (ت460هـ) أن الأمور لا تجري على قياس : (الوافر)

فَتُبْصِرُ مُحْسِنًا يُجْزَى بِقُبْحٍ وَذَا ضَعَةٍ يُقَادُ إِلَى السَّنَاءِ [282]

ويَتَعَجَّب ابن زَيدُون كيف تدنو الثمار الحلوة لقومٍ لا يستحقونها ، في حين يظفر هو بالثمار الجافة ! يقول : (الطويل)

أَتَدْنُو قُطُوفُ الجَنَّتَينِ لِمَعْشَرٍ وَغَايَتِيَ السِّدْرُ القَلِيلُ أوِ الخَمْطُ ؟ [283]

ويشكو ابن الحَدَّاد من الدهر الخَئُون ؛ الذي حَطَّ أصحاب الفَضْل ، ورَفَعَ أَهَلَ السَّفَه والجهل إلى مناصب دولة المُعْتَصِم بن صُمَادِح : (الطويل)

وَلَكِنَّهُ الدَّهْرُ المُنَاقَضُ فِعْلُهُ فَذُو الفَضْلِ مُنْحَطٌّ ، وَذُو النَّقْصِ نَامِئُ [284]

ويزداد عُمْقُ الإحساسِ بِالمَأْسَاةِ إذا كان الشاعرُ ذا مَجْدٍ سابق أو منزلة عالية أو كان أميرًا أو وزيرًا ثُمَّ زالت عنه مكانته ، وآلت إلى مَنْ لا يستحق ، كما في حالة أبي بكر يحيى بن محمد المُلَقَّب بشرف الدولة ، أحد أبناء المُعْتَمِد بن عَبَّاد ، الذي دَعَاهُ المُقَدِّم للحِسْبَة – وكان أُمِيًّا جَاهِلاً – في نهاية العصر المرابطيّ ليكتب له ؛ فأجابه بقوله : (الكامل)

عَجَبًا لِدَهْرٍ كُلُّ مَا فِيهِ عَجَبْ فَدْمٌ سَمَا ، وَنَبِيهُ قَومٍ قَدْ رَسَبْ [285]

ويؤكد مُحَمَّد بن سُلَيمَان الأَنْصَارِيّ المَالَقِيّ (ت500هـ) المعنى نفسه بقوله : (البسيط)

أَسَافِلٌ قَدْ عَلَتْ لَمْ تَعْلُ مِنْ كَرَمٍ وَمُشْرِفَاتِ الأَعَالِي مِنْهُ أَنْكَاسُ [286]

وقد يضطر العقلاء – بسبب فقرهم وسُوء حَالهم – إلى ملاطفة هؤلاء اللِّئَام أو مصانعتهم على ما في ذلك من مرارة ، كما نجد في قول ابن الزَّقَّاق البَلَنْسِيّ (ت530هـ) : (الوافر)

دَوَائِرُهَا تُرَقِّعُ كُلَّ نَذْلٍ وَتُخْفِضُ مَنْ لَهُ مَجْدٌ أَثِيلُ

كَمَا حَلَّتْ وِهَادَ الأَرْضِ أُسْدٌ وَحَلَّتْ فِي بَوَاذِخِهَا وُعُولُ

فَمِنْ وَغْدٍ يُلاطِفُهُ أَرِيبٌ وَمِنْ فَدْمٍ يُصَانِعُهُ نَبِيلُ [287]

وأصبح الشعراءُ عاجزينَ عن تحقيق مآربهم ، عندما امتلك الجُهَّال زمام الأمور ، على نحو ما يُصَوِّرُ ذلك أبو القاسم عَامِر بن هِشَام القُرْطُبِيّ ، الذي رَأَىَ مَنْ دونه علمًا وفضلاً موفور الحظ : (البسيط)

أَرَى بِعَينِي مَا لا تَسْتَطِيلُ يَدِي لَهُ ، وَقَدْ حَازَهُ مَنْ قَدْرُهُ دُونِي (288)

ويطلب أبو عبد الله محمد بن أحمد التجانيّ من الناس ألا يتعجبوا عندما يَحُطُّ الدَّهْرُ الفاضلَ عن المَرْتَبة العُلْيَا ؛ لأنَّ الأشجارَ تَحْمِلُ ثِمَارَهَا ، ولا تُسْقِط منها إلا الشهية اليانعة ، يقول : (الطويل)

أَتَعْجَبُ أَنْ حَطَّتْ يَدُ الدَّهْرِ فَاضِلاً عَنِ الرُّتْبَةِ العَلْيَا فَأَصْبَحَ تَحْتَهَا

أَمَا هَذِهِ الأَشْجَارُ تَحْمِلُ أُكْلَهَا وَتُسْقِطُ مِنْهُ كُلَّ مَا طَابَ وَانْتَهَى (289)

ظَهَرَ (حِرْمَانُ الفَاضِلِ وَإِدْرَاك النَّاقِص) عند شعراء الأندلس في اضطرار الكريم إلى استجداء اللئيم ، وكونه يرضى بالإقامة في دارة الجهل ، ومنزلته تُوَازِي الجوزاء ، ويصبر على الأذى الخالص يناله من أسافلٍ قد عَلَتْ ؛ ولأنَّ النائبات – التي لم يخلُ منها أديب – تنوب ؛ فهو يُمْسِي قرارًا تستقر فيه الخطوب ، ويغتدي غرضًا تصيبه ، بعد أن عُدَّتْ العلوم والآداب والأشعار ذنُوبًا ؛ فَعُوِّضَ الفاضلُ جَهْلاً ، وجُوزِيَ المُحْسِنُ قُبْحًا ، وكُوفِئَ صاحب الضَّعَة سناءً ، وانحطَّ الكامل ، ورَسَبَ النبَّيهُ ، وانخفض (مَنْ لَهُ مَجْدٌ أَثِيلُ) ، ونَمَا الناقص ، وسَمَا الغَبِيُّ ، وارتفع النذل ؛ لذا مِنَ الشقاء أن يكون المرءُ أديبًا أو مُهَذَّبًا .

فَقْر العَالِم وغِنَى الجَاهِل عِنْدَ المُتَنَبّي :

رَوَى التوحيديّ أنَّ أُسْتَاذَهُ أبا سُلَيمَان المَنْطِقيّ (ت نحو 380هـ) قرأ على طُلاَّبه يومًا قول أَفْلاطون (427– 347 ق م) (Platon) : (إنَّ الله تعالى بقدر ما يُعْطِي من الحكمة يمنع الرزق) ؛ وعَلَّلَ ذَلِكَ بِأَنَّ « العِلْمَ والمالَ كَضَرَّتَينِ قَلَّمَا يَجْتَمِعانِ وَيصْطَلِحان ؛ ولأنَّ حظَّ الإنسان من المال إنما هو من قبيل النفس الشهويَّة ... وحَظّه من العلم إنما هو من قبيل النفس العاقلة ، وهذانِ الحَظَّانِ كالمتعاندينِ والضدينِ » (290) .

وقد جَاءَ في المَثَل العربي (غِنَى المَرْءِ فِي الغُرْبَةِ وَطَنٌ ، وفَقْرُهُ فِي الوَطَنِ غُرْبَة) (291) ؛ فإنَّ الفقيرَ – حتى لو أقام فِي وَطَنِه – لا بُدَّ أن يُلازِمَهُ الشعور بالغُرْبَة ، ويَخَافُ الفُضَلاءُ – أشدَّ ما يَخَافُونَ – الفقر وقسوته ؛ وفي الواقع يعاني الحُرّ الكريم من الفقر ، الذي يلازمه من كل جانب ، وكأنَّ الحياءَ متصلٌ بالحرمان .

ووَرَدَ في المَثَل (عَبْدٌ وَحَلْيٌ في يَدَيهِ) [292] ، ويُضرب في المال يملكه مَنْ لا يستأهله ، وقيل لحكيم : لِمَ لا يجتمع العِلْمُ والمَال ؟ فقال : لِعِزّ الكَمَال[293] .

وقد بذل المُتَنَبّي جهدًا مُضْنِيًا في طلب الرزق ، وطَالَ سَفَرُهُ ، ولكنه لم يُحَصّل الرزق الذي يُوَازِي ما بَذَلَهُ من جهد ، يقول : (الخفيف)

ضَاقَ صَدْرِي ، وَطَالَ فِي طَلَبِ الرِّزْ قِ قِيَامِي ، وَقَلَّ عَنْهُ قُعُودِي [294]

إنه يَعِي قِيمَة المال ، ويَعْرِفُ تبجيل الناس للغَنِيّ ، الذي يَسْتُرُ مَالُهُ عُيُوبَهُ ، وازدراءهم للفقير ، الذي ينظرون إليه على أنه شرّ الناس وأضعفهم ، ويرى أَنَّ المَالَ قِوَامُ الحياة ، وطريق المَجْد والقُوَّة ؛ فلا مَجْدَ في الدُّنْيَا لِمَنْ أغفل مَالَهُ وأتلفه ، وكذلك لا مَالَ في الدُّنْيَا لِمَنْ ضَيَّعَ مَجْدَهُ : (الطويل)

فَلا يَنْحَلِلْ فِي المَجْدِ مَالُكَ كُلُّهُ فَيَنْحَلَّ مَجْدٌ كَانَ بِالمَالِ عَقْدُهُ

وَدَبِّرْهُ تَدْبِيرَ الذِي المَجْدُ كَفُّهُ إِذَا حَارَبَ الأَعْدَاءَ وَالمَالُ زَنْدُهُ

فَلا مَجْدَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَلا مَالَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ [295]

وقال في صباه : (الطويل)

إِذَا لَمْ تَجِدْ مَا يَبْتُرُ الفَقْرَ قَاعِدًا فَقُمْ وَاطْلُبِ الشَّيءَ الذِي يَبْتُرُ العُمْرَا

هُمَا خَلَّتَانِ : ثَرْوَةٌ أَو مَنِيَّةٌ لَعَلَّكَ أَنْ تُبْقِي بِوَاحِدَةٍ ذِكْرَا [296]

إذا لم تجد القناعة والكفاية ؛ فاطْلُب ما يقطع العمر ، وهو قتل الأعداء ؛ فهما خَصْلَتانِ : إما الغِنَى أو الموت ؛ فانهض : إما لتكْسِب المال ، وإما لِتَقْتُل .

ويرى أن الجُودَ يُورِثُ الإقلال والفقر ، يقول : (البسيط)

لَولا المَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ الجُودُ يُفْقِرُ ، وَالإِقْدَامُ قَتَّالُ[297]

ولا يأخذ المالَ بالذلّ ؛ فإذا حَصَلَ له مالٌ بِذُلّ تركه ، ولا يستلذُّ بشيء يُلَطِّخُ عرضه بأخذه ، يقول : (البسيط)

وَلا أُقِيمُ عَلَى مَالٍ أُذَلُّ بِهِ وَلا أَلَذُّ بِمَا عِرْضِي بِهُ دَرِنُ [298]

لقد طال قيام المتنبي من أجل طَلَب الرزق ، وما ذاك إلا لأنه لا مَجْدَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ ، ولأنه لا يرضى بأن يُقِيمَ على مالٍ يُذَلُّ به ، وهو إذا لم يجد ما يَبْتُرُ الفقر سارع إلى ما يَبْتُرُ العُمْر .

فَقْر العَالِم وغِنَى الجَاهِل عِنْدَ شُعَرَاءِ الأَنْدَلُسِ :

لقد دُمِيَتْ جُفُونُ ابن عبد رَبّه عندما رأى الدنيا في أيدي اللئام ، يقول : (الطويل)

أَرَى كُلَّ فَدْمٍ قَدْ تَبَحْبَحَ فِي الغِنَى وَذُو الظَّرْفِ لا تَلْقَاهُ غَيرَ عَدِيمِ ! [299]

أجاب المُعْتَمِد طالبي عطائه من الشعراء عندما كان في سجن أَغْمَات :

(الرمل)

قُلْ لِمَنْ يَطْمَعُ فِي نَائِلِهِ قَدْ أَزَالَ اليَأْسُ ذَاكَ الطَّمَعَا
رَاحَ لا يَمْلِكُ إلاَّ دَعْوَةً جَبَرَ اللَّهُ العُفَاةَ الضُّيَّعَا [300]

لقد طلبوا مطلبًا عسيرًا منه وهو الأسير الفقير الذي لا يَمْلِكُ شيئًا ، وهو – في حقيقة الأمر – أحقُّ منهم بالسؤال ، ولولا حياؤه وعِزَّة نفسه وشعوره بالكبرياء لَقَلَّدَهُم في الطلب فسأل الناس مثلهم[301] .

ووجدنا عند شعراء الأندلس اللائمة ، التي تشحذ لسانها وتنبري لهجاء أبي الحسن عليّ بن محمد بن ثَابت الخَولانيّ المعروف بالحدَّاد المَهْدَوِيّ ؛ لأنَّه تَجَرَّأَ وبَاعَ آخر ما تبقى من المتاع ، وهي الدفاتر ؛ فما كان منه إلا أنْ طأطأ رأسه وقال بصوتٍ متهدج في حسرةٍ مريرة : (الكامل)

لا تَعْجَبِي مِمَّا رَأَيتِ فَنَحْنُ فِي زَمَنِ الضَّيَاعِ [302]

ويقول سُليمانُ بن مُحَمَّد المَهْرِيّ الصقليّ إنَّ الفضل والمَجْد لم يصل به إلى مآربه ؛ فقد تَقَلَّبَ الدهرُ ، وأصبح الصَّقْرُ يَلْتَمِسُ فَضْلَ أَرْزَاقِ الحَمَام ، وصارت الدنيا في أيدي اللِّئَام : (الوافر)

عَجِبْتُ لِمَعْشَرٍ عَزُّوا وَبَزُّوا وَلَمْ يَصِلُوا إِلَى الرُّتَبِ السَّوَامِي
طَلَبتُ بِهِمْ مِنَ العَدَمِ انْتِصَارًا فَأَشْبَهْتُ ابْنَ نُوحٍ فِي اعْتِصَامِي
تَقَلَّبَ دَهْرُنَا فَالصَّقْرُ فِيهِ يُطَالِبُ فَضْلَ أَرْزَاقِ الحَمَامِ
عَلَى الدُّنْيَا العَفَاءُ ! فَقَدْ تَنَاهَى تَسَرُّعُهَا إِلَى أَيدِي اللِّئَامِ [303]

ويَتَعَالى صُرَاخُ ذي الوزارتينِ أبي الحَسَن جعفر بن إبراهيم بن الحاجّ اللُّورَقيّ (ت510هـ) في غَضَبٍ ؛ فيقول : (الطويل)

وَمِنْ نَكَدِ الأَيَّامِ أَنْ يَعْدَمَ الغِنَى كَرِيمٌ ، وَأَنَّ المُكْثِرِينَ لِئَامُ ! [304]

ويقول أبو عَامِر مُحَمَّد بن الأَصِيليّ إن الأوغاد يعتمرون الدُّور ، ويركبون المَذَاكِي والمطايا ، ويتركونه يشكو الفقر ، ويلتمسُ العطاء : (الوافر)

أَرَى الأَوغَادَ يَعْتَمِرُونَ دُورًا وَمَا لِي فِي بِلادِ اللهِ دَارُ
إِذَا رَكِبُوا المَذَاكِي وَالمَطَايَا فَمَرْكُوبِي عَلَى شَرَفَي حِمَارُ
أَجُولُ فَلا أَرَى إِلاَّ رِعَاعًا كِبَارُهُمُ إِذَا اخْتُبِرُوا صِغَارُ [305]

وقد جَعَلَ أبو بكر مُحَمَّد بن محرز الزهريّ البَلَنْسِيّ الفَقْر مُغْرَمٌ بالأخيار النُّبَلاء ، يقول : (مجزوء الكامل)

وَالوَفْرُ أَظْهَرَ مَعْشَرًا وَالفَقْرُ بِالأَخْيَارِ يُغْرَى [306]

ومَنْ أراد الغِنَى فليكن جَاهِلاً أو مُتَجَاهِلاً ، على نحو ما نجد في قول ابن سَارة : (الكامل)

عَابُوا الجَهَالَةَ وَازْدَرُوا بِحُقُوقِهَا وَتَهَافَتُوا بِحَدِيثِهَا فِي المَجْلِسِ
وَهِيَ التِي يَنْقَادُ فِي يَدِهَا الغِنَى وَتَجِينُهَا الدُّنْيَا بِرَغْمِ المَعْطِسِ
إِنَّ الجَهَالَةَ لِلغِنَى جَذَّابَةٌ جَذْبَ الحَدِيدِ حِجَارَةِ المَغْنَطِسِ [307]

ويرى الأعمى التُّطَيلِيّ المالَ في أيدي أُنَاسٍ أغبياء ، وهو محرومٌ منه ، يقول : (الطويل)

رَأَيتُ الغِنَى وَقْفًا عَلَى كُلِّ جَاهِلٍ فَيَا عَينَ ذِي الجَهْلِ انْعَمِي ثُمَّتِ انْعَمِي [308]

فالخوف والفقر والقلق هي ما يعرفه الأدباء كما يقول أبو مُحَمَّد بن هارون القُرْطُبِيّ : (مجزوء الوافر)

وَلِلآدَابِ أَبْنَاءٌ بِبَحْرِ الفَقْرِ قَدْ غَرِقُوا
وَكُلٌّ مِنْهُمُ وَجِلٌ بِمَا يَلْقَاهُ أَو فَرِقُ
وَقَدْ صَفِرَتْ أَكُفُّهُمُ فَلا وَرَقٌ وَلا وَرِقُ [309]

ولا بُدَّ أن تَسْكُنَ الحَسْرةُ قَلْبَ مَنْ يَمْلُك – بين جنبيه – نَفْس الملوك ، ولكنه يعيش – في شَظَفٍ ونَصَب – مثل المساكين ، يقول أبو القاسم عامر بن هِشَام القُرْطُبِيّ : (البسيط)

وَأَنْكَدُ النَّاسِ عَيشًا مَنْ تَكُونُ لَهُ نَفْسُ المُلُوكِ ، وَحَالاتُ المَسَاكِينِ [310]

ويؤكد أبو عمرو بن حَرْبُون الشِّلْبِيّ أن المال في يد الجُهَلاء بقوله : (البسيط)

مَا أَصْعَبَ الفَقْرَ لَكِنِّي رَضِيتُ بِهِ لَمَّا رَأَيتُ الغِنَى فِي جَانِبِ العَارِ [311]

ويشير ابن خَمِيس إلى أن الضِدَّانِ (العِلْم والمَال) لا يجتمعانِ بقوله : (السريع)

يَأْبَى ثَرَاءُ المَالِ عِلْمِي ، وَهَلْ يَجْتَمِعُ الضِّدَّانِ : عِلْمٌ وَمَالْ ؟ [312]

وعندما يَحْمِلُ المَرْءُ بين جَنْبَيهِ نَفْسَ الملوك ، يَلْقَ عنتًا شديدًا من جَرَّاء إهماله وفقره ، خاصةً إذا رأى الدنيا تُسْرِعُ إلى أَيدِي اللِّئَامِ ، وتغمرهم بالمال ؛ ويقف الصقرُ خاضعًا متذللاً للحَمَام ، يَطْلُبُ منه ما فاض عن حاجته ، ومِمَّا يزيد حسرة الفضلاء أَنَّ مَنْ يَمْلِكُ المالَ بُخَلاء لِئَام ؛ فهم يملكون المال ويُمْسِكُونه ؛ فيزداد فقر الفضلاء ، ويسكن الأوغادُ الدُّور الفاخرة ، تاركينَ أهل الفضل يَرْفُلُونَ فِي حُلَلِ الفَقْرِ ، ويركبون – على شَرَفِهِمْ – الحمير ، وما ذاك إلا لأَنَّ الفَقْرَ مُغْرَمٌ بالأخيار ؛ والجهلَ يَجْذِبُ الغِنَى ، كما يَجْذِبُ المغناطيسُ الحديدَ ؛ فإنه لا (يَجْتَمِعُ الضِّدَّانِ : عِلْمٌ وَمَالْ ؟) ؛ مِمَّا يرسخ حقيقة ثابتة مُفَادها : كَون الغِنَى وَقْفًا عَلَى كُلِّ جَاهِلٍ .

شَقَاءُ العَاقِلِ وَسَعَادَةُ الأَحْمَقِ عِنْدَ المُتَنَبِّي :

صَاحِبُ العَقْلِ شَقِيٌّ مُهَان ، والجَاهِلُ الوَضِيعُ سَعِيدٌ مُكْرَم ، وتوجد علاقة ظاهرة بين تَرَقِّي الذِّهْن وزيادة الهَمّ ، وقد سأل أبو حَيَّان التوحيديّ : ما عِلَّة كثرة غَمّ مَنْ كان أَعْقَل ، وقِلَّة غَمّ مَنْ كَانَ أَجْهَل ؟ [313] ، وأجاب مسكويه : « العاقل – لأجل جَوَلانِ فِكْره – يَكْثُر انتظارُه مَكَارِهَ الدُّنْيَا ، ومَنْ لا يَكْثُرُ فِكْرُه ، ولا ينتظر مَكْرُوهًا ؛ فلا سَبَبَ له يَغُمُّه » [314] .

ولا يَجْهَلُ المُتَنَبِّي « ما يبتغي من الدنيا ، ولا يَخْفَى عليه ما في بُعْد الهِمَّة من المَكَارِه والعذاب ، وأنَّ السِّيَادَةَ مَحْفُوفَةٌ بالمَشَقَّة مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وأَنَّ صَفْوَ الحَيَاةِ نَصِيبُ العَاجِزِينَ الغَافِلِينَ ... بل يَعْرِفُهُ ويَقُولُهُ ويُكَرِّرُهُ كما لم يُكَرِّره شاعرٌ قبله ولا بعده » [315] ، يقول : (الكامل)

ذُو العَقْلِ يَشْقَى فِي النَّعِيمِ بِعَقْلِهِ وَأَخُو الجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ [316]

إِنَّ مَرَارَةَ الدنيا للعاقلينَ ، وحلاوتها للجُهَّال ؛ فَإِنَّ العاقلَ يَشْقَى ، وإِنْ كان في نعمة ؛ لفكره في عاقبة الأمور ؛ فيَظَلّ مهمومًا ، والجاهل يَنْعَمُ ، وإِنْ كَانَ في شَقَاوَةٍ لغفلته ، وقِلَّة تفكرُّه في العَوَاقِب ، ويخلو من الحُزْن والفِكْر مَنْ كان خاليًا مِنَ الفِطْنة والبصيرة : (البسيط)

أَفَاضِلُ النَّاسِ أَغْرَاضٌ لِذَا الزَّمَنِ يَخْلُو مِنَ الهَمّ أَخْلاهُمْ مِنَ الفِطَنِ[317]

ويؤكد هذا المعنى مرة أخرى في قوله في رثاء فاتك : (الكامل)

تَصْفُو الحَيَاةُ لِجَاهِلٍ أَو غَافِلٍ عَمَّا مَضَى فِيهَا وَمَا يُتَوَقَّعُ [318]

يُسَبِّبُ العقلُ الشقاءَ لِصَاحِبِه ، بينما يَنْعَمُ صاحب الجهالة ، وإِنْ كَانَ في الشقاوة ؛ فَإِنَّ الحياة لا تصفو إلا لجاهل لا يشغل نفسه بمتاعب الحياة ، أو غافل لا يَتَدَبَّر في عواقب الأمور ؛ فَإِنَّ أَخْلاهُمْ مِنَ الفِطَنِ هو الخالي من الهَمّ .

شَقَاءُ العَاقِلِ وَسَعَادَةُ الأَحْمَقِ عِنْدَ شُعَرَاءِ الأَنْدَلُسِ :

يؤكد أبو عامر بن شُهَيد أَنَّ جزاء أصحاب العقول الأذى ؛ لأنَّ الزمانَ لا يُنْصفُ ذَوِي العقول ، وكأنَّ بينه وبينهم ثأرًا ؛ فيُسَلِّط عليهم أعداءهم : (الطويل)

وَيَجْلُبُ لِي فَهْمِي ضُرُوبًا مِنَ الأَذَى وَأَشْقَى امْرِئٍ فِي قَرْيَةِ الجَهْلِ عَالِمُ [319]

وقد جَرَّ العقل على ابن زيدون الإعراض والكُرْه ؛ فإنَّ الزمانَ يُحَارِبُ أصحابَ العقول ؛ ليشقيهم ، يقول : (الطويل)

أُخَصُّ لِفَهْمِي بِالقِلَى ، وَكَأَنَّمَا يَبِيتُ لِذِي الفَهْمِ الزَّمَانُ عَلَى ذَحْلِ [320]

ويُرْجِعُ ابن الحَدَّاد سبب شقائه وعداء الزمان له إلى فهمه : (الكامل)

يَا مَا لِدَهْرِي لَيسَ يَعْدُلُ حُكْمُهُ أَتَرَاهُ خَالَ العَدْلَ فِي العُدْوَانِ ؟

أَو رَدَّ حَظِّي فِي الحُظُوظِ مُصَلِّيًا ؟ أَنْ كَانَ ذِهْنِي سَابِقَ الأَذْهَانِ [321]

المعنى : عندما عَلِمَ الدَّهْرُ بتفوقي على شعراء بَلَدِي جعلني تاليًا لهم ؛ لذلك شبه حَظَّهُ بالفرس المُصَلِّي ، ولم يُشَبِّهْهُ بالمُجَلِّي .

ويقول أبو محمد بن صاحب الصلاة الدانيّ (ت578هـ) ، ويُعْرَف بعَبْدُون : (الطويل)

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى المَرْءِ أَنْ يَرَى بِهَا الحُرَّ يَشْقَى ، وَاللَّئِيمَ مُمَوَّلا [322]

ويشقى صاحب العقل بعقله ، ويَحْظَى الأَحْمَقُ بِجَهْلِهِ ، على نحو ما يُصَوِّرُ ذلك أبو القاسم عَامِر بن هِشَام القُرْطُبِيّ :(البسيط)

وَصَاحِبُ العَقْلِ فِي الدُّنْيَا أَخُو كَدَرٍ وَإِنَّمَا الصَّفْوُ فِيهَا لِلمَجَانِينِ ! [323]

ويؤكد أبو البَقَاء الرُّنْدِيّ (ت684هـ) أَنَّ العاقلَ يَعْجَزُ عن قضاء مآربه في الدنيا : (الوافر)

كَأَنَّ العَقْلَ لِلدُّنْيَا عَدُوٌّ فَمَا يَقْضِي بِهَا أَرَبًا أَرِيبُ [324]

ويعلن أبو بَكْر بن الحَكِيم الرُّنْدِيّ (ت708هـ) أَنَّ عَيشَ الكِرَامِ – دائمًا – مُكَدَّر: (الطويل)

فَفِي مَنْ مَضَى لِلمَرْءِ ذِي العَقْلِ أُسْوَةٌ وَعَيشُ كِرَامِ النَّاسِ لَيسَ يَطِيبُ [325]

ويُعْلِنُ ابن لِيونَ التُّجِيبيّ أَنَّ الهَمَّ يزداد بقدر عُلُوّ الهمة ؛ فعلى(قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأْتِي العَزَائِمُ) : (السريع)

مَنْ عُدِمَ الهِمَّةَ فِي رَاحَةٍ مِنْ أَمْرِهِ يُكْرَمُ أَو يُهْتَضَمْ

وَإِنَّمَا يَشْقَى أَخُو هِمَّةٍ فَإِنَّ الإِنْكَادَ بِقَدْرِ الهِمَمْ [326]

إِنَّ الشَّقَاءَ – في قَرِيَة الجَهْلِ – نصيبُ العَالِمِ ؛ لأَنَّ فَهْمَهُ يَجْلُبُ له ضُرُوبًا من الأذى ، ويَجْعَلُ الزمانَ يَخُصُّه بِالقِلَى ؛ فَإِنَّ الدَّهْرَ لا يَعْدِلُ في حُكْمِهِ ؛ فَالحُرُّ نَصِيبُهُ الشَّقَاء ، واللئيمُ نَصِيبُهُ الثَّرَاء ، ويَعِيشُ العَاقِلُ في نَصَبٍ وعَنَاء ، ويَنْعَمُ المَجَانِينَ بالسَّعَادة والهَنَاء ؛ فالدنيا تُنَاصِبُ العَاقِلَ العَدَاء ، وتُشْقِي أَصْحَابَ الهِمَم ؛ لذا لا يَقْضِي فيها الأريبُ أَهْدَافَهُ ، وما ذاك إلا لأَنَّ (عَيش كِرَامِ النَّاسِ لَيسَ يَطِيبُ)

النَّحْسُ يُصَاحِبُ النُّبَلاءَ والسَّعْدُ يُلازِمُ الأَوْغَادَ عِنْدَ المُتَنَبِّي :

اتفق كثيرٌ من الشعراء على أَنَّ الحظ أعمى كما يقول ابن الرُّومِيّ ، وكان لسانُ حَالِهِمْ يُرَدِّدُ الأمثال التي تُؤَيِّدُ هذا المعنى مثل : (حَظٌّ فِي السَّحَابِ ، وَعَقْلٌ فِي التُّرَابِ) [327] ، و(رُبَّما أَصَابَ الأَعْمَى رُشْدَهُ) [328] ، أيّ رُبَّمَا صادف الشيء وَفْقَه من غير طَلَبٍ منه وقصد ، و(رُبَّما أَصَابَ الغَبِيُّ رُشْدَهُ) [329] ، ويُضْرَبُ في التسليم

والرضا بالقدر ، و(اسْعَ بِجَدِّكَ لا بِكَدِّكَ) [330] ، و(قَدْ يُدْرِكُ المُبْطِئُ مِنْ حَظِّهِ) [331] ، و(كَفُّ بَخْتٍ خَيرٌ مِنْ كُرِّ عِلْمٍ) [332] ، و(مِنَ العَجَائِبِ أَعْمَشٌ كَحَّالٌ) [333] .

يقول المُتَنَبّي إنه يسافرُ في طلب الرزق ، ولكن يصاحبه دائمًا الحظ العاثر : (الخفيف)

أَبَدًا أَقْطَعُ البِلادَ ، وَنَجْمِي فِي نُحُوسٍ ، وَهِمَّتِي فِي سُعُودِ [334]

ويقول : (الطويل)

وَمَا الجَمْعُ بَينَ المَاءِ وَالنَّارِ فِي يَدِي بِأَصْعَبَ مِنْ أَنْ أَجْمَعَ الجَدَّ وَالفَهْمَا [335]

يَصْعُبُ عليه أن يجمع بين الجَدّ والفَهْم ؛ لأنَّ العَقْلَ والعِلْمَ بتدبير الأمور لا يجتمع مع الحظّ في الدنيا ، والجاهل المحظوظ في الدنيا أسعد من العالِم .

إنه دَائِبُ العَمَلِ والحَرَكَة ، يَقْطَعُ البِلادَ جَيئَةً وذهابًا ، ويُصَاحِبُهُ الحَظُّ العَاثِر دائمًا ؛ مِمَّا جَعَلَهُ يتيقن أنه يستحيل أَنْ يَجْمَعَ بين السَّعْدِ والفَهْم ؛ وما ذاك إلا لأنَّ النَّحْسَ يُصَاحِبُ الكِرَام ، والبَخْت مُلازِمٌ لخِسَاسِ الناسِ .

النَّحْسُ يُصَاحِبُ النُّبَلاءَ والسَّعْدُ يُلازِمُ الأَوغَادَ عِنْدَ شُعَرَاء الأَنْدَلُسِ :

يتحدث أبو عامر بن شُهَيد عن مواهبه ؛ فيذكر أنه يَتَحَلَّى بالفَهْم الواسع ، ولكنه يفتقر إلى الحظّ السعيد : (الطويل)

وَفَهْمٌ لَو البِرْجِيسُ جِئْتُ بِجَدِّهِ إِذًا لَتَلَقَّانِي بِنَحْسِ المُقَاتِلِ[336]

ولم يتركْ الزمانُ لأصحاب الذكاء نصيبًا من رَغَد العيش ، على نحو ما يقول أبو عبد الله بن الحَنَّاط الكفيف : (الكامل)

وَغَضَارَةُ الأَيَّامِ تَأْبَى أَنْ يُرَى فِيهَا لأَبْنَاءِ الذَّكَاءِ نَصِيبُ

وَلِذَاكَ مَنْ صَحِبَ اللَّيَالِي طَالِبًا جَدًّا وَفَهْمًا فَاتَهُ المَطْلُوبُ [337]

ويؤكد ابن وَهْبُون أنه كلما زادت نَجَابَةُ المَرْءِ كبا زَنْدُ السعادة وتَوَارَى : (الطويل)

وَحَيثُ يُرَى زَنْدُ النَّجَابَةِ وَارِيًا فَثَمَّ يُرَى زَنْدُ السَّعَادَةِ كَابِي [338]

ويؤكد الأعمى التُّطَيلِيّ ملازمة الحَظِّ العَاثِرِ لِلفُضَلاء ، يقول : (الطويل)

إِذَا ابْتَدَرَ النَّاسُ الحُظُوظَ وَأَشْرَفَتْ مَطَالِبُ قَومٍ وَهِيَ سُودٌ حَوَالِكُ

رَأَيتَهُمُ لَو كَانَ عِنْدَكَ مَدْفَعٌ كَمَا كَسَدَتْ خَلْفَ الرِّئَالِ التَّرَائِكُ [339]

ويخاطب ابن حمديس المعتمد بعد نكبته مؤكدًا ملازمة الحظ العاثر للكِرَام ، وعبث الزمان بهم : (الطويل)

جَرَى بِكَ جَدٌّ بِالكِرَامِ عَثُورُ وَجَارَ زَمَانٌ كُنْتَ فِيهِ تُجِيرُ [340]

وعندما انصَبَّتْ العاذلة بالعِتَاب على أُمَيَّة بن أبي الصلت الأندلسيّ (ت529هـ) لقعوده خاملاً ، وأبدت تعجبها ، وسألت هازئةً : (أَأَنْتَ ضَعِيفُ الرَّأْيِ أَمْ أَنْتَ عَاجِزُ ؟) ، أجابها متحسرًا : (الطويل)

فَقُلْتُ لَهَا : ذَنْبِي إِلَى القَومِ أَنَّنِي لِمَا لَمْ يَحُوزُوهُ مِنَ المَجْدِ حَائِزُ
وَمَا فَاتَنِي شَيءٌ سِوَى الحَظِّ وَحْدَهُ وَأَمَّا المَعَالِي فَهِيَ عِنْدِي غَرَائِزُ (341)

لقد حَازَ المجدُ الأثيل ، ولكنه فقد نَصِيبَهُ مِنَ الحَظِّ السَّعِيدِ ؛ فَإِنَّ فَوت الحَظِّ هو السبب المباشر لهذا الخُمُول .

وخَرَجَ ابن جُبَير (ت614هـ) من أسفاره البعيدة بنتيجة مُؤَدَّاها : لا يَنَالُ الفَتَى الرِّزْقَ بِالكَدِّ ، ولا يُحْرَمُهُ لعجزه ؛ فَإِنَّ الأمرَ قَضَاءٌ لا سَبِيلَ لِرَدِّهِ : (الطويل)

وَشَاهَدْتُ فِي الأَسْفَارِ كُلَّ عَجِيبَةٍ فَلَمْ أَرَ مَنْ قَدْ نَالَ جَدًّا بِجِدِّهِ
وَمَا يُحْرَمُ الإِنْسَانُ رِزْقًا لِعَجْزِهِ كَمَا لا يَنَالُ الرِّزْقُ يَومًا بِكَدِّهِ
حُظُوظُ الفَتَى مِنْ شَقْوَةٍ وَسَعَادَةٍ جَرَتْ بِقَضَاءٍ لا سَبِيلَ لِرَدِّهِ (342)

ويَنَالُ الحَظَّ الوافرَ من الآمال الأخابثُ كما يرى مَرْج الكُحْل (ت634هـ) ، يقول : (الطويل)

عَذِيرِي مِنَ الآمَالِ خَابَتْ قُصُودُهَا وَنَالَتْ جَزِيلَ الحَظِّ مِنْهَا الأَخَابِثُ (343)

ويُقِرُّ أبو مُحَمَّد القُرْطُبِيّ (ت643هـ) أنه ينقصه البَخْتُ ، يقول : (الخفيف)

أَتَمَنَّى لِقَاءَ حُرٍّ ، وَقَدْ أَعْـ وَزَ بَخْتِي ، كَمَا عَدِمْتُ الكَرِيمَا (344)

ويقول أبو البَقَاء الرُّنْدِيّ إن الإنسان إذا لم يُرْزَقْ البَخْتَ ، صارت مَحَاسِنُهُ عُيُوبًا : (الوافر)

وَقَدْ أَجْهَدْتُ نَفْسِي فِي اجْتِهَادٍ وَمَا أَنْ كُلُّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبُ
إِذَا لَمْ يُرْزَقِ الإِنْسَانُ بَخْتًا فَمَا حَسَنَاتُهُ إِلاَّ ذُنُوبُ (345)

ويقول ابن لِيونَ التُّجيبيّ إنَّ البختَ يُيَسِّرُ الأمورَ لِمَا فيه خير الإنسان ، ويَدْفَعُ عنه ما لا يُرْضِيه : (البسيط)

البَخْتُ أَفْضَلُ مَا يُؤْتَى الفَتَى فَإِذَا يَفُوتُهُ البَخْتُ لا يَنْفَكُّ يَتَّضِعُ
يَكْفِيكَ فِي البَخْتِ تَيسِيرُ الأُمُورِ وَأَنْ يَكُونَ مَا لَيسَ تَرْضَى عَنْكَ يَنْدَفِعُ (346)

ويقول ابن حذلم إِنَّ المَرْءَ لا يستطيع إدراك حاجته إلا بمساعدة الجَدِّ : (الكامل)

أَبَتِ المَعَارِفُ أَنْ تُنَالَ بِرَاحَةٍ إِلاَّ بِرَاحَةِ سَاعِدِ الجِدِّ

فَإِذَا ظَفِرْتَ بِهَا فَلَسْتَ بِمُدْرِكٍ أَرَبًا بِغَيرِ مُسَاعِدِ الجَدِّ [347]

يعثر الجَدُّ بالكِرَام دائمًا ؛ فيفوتُ الأذكياءُ نصيبهم من صفاء العيش ؛ لأنه لا يجتمع العقل الراجح مع السَّعْد ؛ فإنه عندما يُورِي زَنْدُ النجابة يَنْطَفِئ زند السعادة ؛ وما ذاك إلا لأنَّ الحظ السعيد يصاحب الأخابثُ ؛ لذا أصبح (البَخْتُ أَفْضَلُ مِمَا يُؤْتَى الفَتَى) ؛ لأنك لست مُدْرِكًا (أَرَبًا بِغَيرِ مُسَاعِدِ الجَدِّ) .

الخاتمة ونتائج البحث

تَكْشِفُ هذه الأشعار – في مُجْمَلِهَا – القِنَاعَ عن نسيج التوتُّر ومواطن الصراع في حياة هؤلاء الشعراء ؛ وتُصَوِّر عواطف ثائرة ناقمة ، وتكشف عن خوفٍ كامنٍ في صدورهم ، وهي تبعث على الدهشة والحيرة والأسى والإحباط معًا ؛ لأن هؤلاء الشعراء يكابدون مرارة الواقع الأليم ، وقد اضطروا من جَرَّاء هذا الغَبْن إلى ما لا يَحْسُنُ بِالحُرِّ أن يرسمه بالقلم ، ويَطْرَحُ في قَلْبِ صاحبه الألم على حد تعبير أبي حَيَّان التوحيديّ .

وقد رَصَدْتُ عددًا من نِقَاط التشابُه بين المُتَنَبِّي وشعراء الأندلس ؛ فقد اشتركوا جميعًا في شكوى : الفقر ، والحرمان ، وقِلَّة المُعِين والصديق ، والجهل ، والفساد ، وانعدام المُرُوءة ، وكانت قلوبهم تحترق في ذِلَّة وانكسار ، وهم يرون مَنْ دُونَهُمْ فضلاً وعلمًا موفور الحَظِّ .

وقد عَبَّرَ هذا الشعر – الذي لا يخلو من قُوَّة ملاحظة وحُسْن تعليل – عن الصراع النفسيّ المرير الذي يدور في نفوسهم ، وقد أرجعوا أسباب فشلهم إلى عوامل خارجيَّة ، مثل : الحظ ، والفُرْصة ، والحَسَد ، والقَدَر .

وهناك جملة من الأسباب أَدَّتْ إلى ترسيخ الإحساس بمَضَاضَة الغَبْن في نفس المُتَنَبِّي وشعراء الأندلس ، منها : كَون الرِّزْقَ مُقَدَّر ، ومُعَانَدَة الزمانِ للفُضَلاء ، وسَعْي الحاسد ، وخيانة الصديق ، وإهانة الكريم في وطنه .

وهناك جملة من الآثار نتجت عن الإحساس بمَضَاضَة الغَبْن في نفس المُتَنَبِّي وشعراء الأندلس ، منها : الشعور بالخُمُول ، والحُزْن في العيد ، والفخر الزائد بالنفس ، والتشبُّه بالأنبياء ، والفخر بالشعر ، والتصبُّر في مواجهة المحن ، ورفض الذل ، والرحيل عن البلد ، وهجاء الناس ، وهجاء الملوك ، ومصاحبة الكِتَاب ، والصمت .

ونستطيع أن نقول إن كُلاًّ من هؤلاء النبلاء كان ينزع إلى المَجْدِ طوال حياته ، ويأمل في تحقيقه ، إلا أنهم لم ينالوا إلا خيبة الأمل – وعلى رأسهم المُتَنَبِّي – ويُظْهِرُ شعرهم الموقف الفكريّ الذي سيطر عليهم إزاء هذا الغَبْن البَيِّن ، واتضح أن سبب سيطرة هذا الشعور عليهم أَنَّ كُلاًّ منهم يرى أنه يستحق أكثر مما أخذ . وكان شعرهم صادقًا ؛ لذا أَثَّرَ في النفوس ، وألهب المشاعر ، ونَفَذَ إلى الأعماق ، وحَرَّكَ الأذهان .

وتعكس الثُّنَائِيَّات الضِّدِّيَّة – في حقيقتها – حالة الصراع النفسيّ ، وحِدَّة المزاج ، وقد استخدموها لشعورهم بالمعاناة والآلام ، ووَاجَهُوا الأمور المختلّة المتناقضة بسلاح السخرية اللاذعة ، أو الابتسامة المصطنعة الساخرة ، التي تُعَبِّر عَمَّا يشعرون

به من استخفاف ، وقد قامت سخريتهم على فكرة المقابلة بين : (حِرْمَان الفَاضِل وإِدْرَاك النَّاقِص) ، (فَقْر العَالِم وغِنَى الجاهل) ، (شقاء العاقل وسعادة الأحمق) ، (النحس يصاحب النبلاء والسَّعْد يلازم الأوغاد) .

وقد كانت الأشعار التي قالها شعراء الأندلس في وصف مَضَاضَة الغَبْن تلتقي مع شعر المُتَنَبِّي ، وتحذو حذوه ، وتُقَلِّدُهُ في كثير من الأحيان ، وظَهَرَ إعجاب شعراء الأندلس الكبير بالمُتَنَبِّي ، وسعيهم – سعيًا حثيثًا – يُنَقِّبُونَ في أشعاره ، وينهلون من ألفاظه ، ومعانيه ، وتراكيبه ، وصوره ، ويُضَمِّنُونَ شعره ، وأظهر شُهْرة شعر المُتَنَبِّي ، ونظرة الأندلسيين إليه بوصفه نموذجًا يُحْتَذَى .

إن جوانب العظمة والعبقرية في شعر المُتَنَبِّي أكبر من أن تحيط بها مثل هذه الدراسات ، كما أن إبداعه ما زال ينطوي على كثير من الجوانب الغامضة التي تستعصي على الكشف ، وتحتاج لمزيدٍ من البحث .

وسيظل الحوار الأدبيّ بين المشرق والأندلس – ولا سيما بين المُتَنَبِّي ، بوصفه أشهر شعراء العربية على الإطلاق ، وشعراء الأندلس – ميدانًا رَحْبًا ، يثير جدلاً ، ويطرح رُؤًى ، ويتضمن أفكارًا ، ويحمل أسئلة كثيرة ، تنتظر مزيدًا من البحث والتقصِّي في أبحاثٍ جديدة جادة أكثر عُمْقًا تَكْشِفُ ثراء فيض عطائه ، وتجدُّد رُؤَاهُ الإبداعيَّة الخاصَّة .

الحواشي

(1) انظر : إميليو غَرسِيَة غُومِس : مع شعراء الأندلس والمتنبي ؛ سيرٌ ودراسات ، نقله إلى العربية الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف ، ط5 ، 1412هـ - 1992م .

(2) انظر : محمد بن شريفة : أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1986م ، ص93- 167.

(3) انظر : أيمن محمد ميدان : الحوار الأدبيّ بين المشرق والأندلس ؛ المتنبي والمعري نموذجين ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ط1 ، 2004م ، ص15- 74 .

(4) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ؛ بشرح أبي البقاء العكبري ، المسمى بالتبيان في شرح الديوان ، ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، د . ت ، 187/1.

(5) المصدر السابق ، 374/2.

(6) نقله إليها أول مرة زكرياء بن بكر المعروف بابن الأشج (ت393هـ) ، وكان قد رحل من الأندلس إلى المشرق ؛ فلَقِي المتنبي بمصر ، وأخذ عنه شعره روايةً ، وثمة أندلسي آخر شافه المُتَنَبِّي في مصر أيضًا ، وأدخل شعره إلى الأندلس ، وهو أبو عبد الله محمد بن قادم القُرْطُبِيّ . انظر : محمد بن شريفة : أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة ، ص98 .

(7) ابن بَسَّام : الذَّخِيرَة في محاسن أهل الجَزِيرَة ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط1 ، 1399هـ - 1979م ، 143/1/2 . ابن دِحْية الكَلْبِيّ : المُطْرِب مِنْ أشعار أهل المغرب ، تحقيق إبراهيم الإبياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي ، راجعه طه حسين ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، 1954م ، ص 5 - 6 .

(8) إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين ؛ أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، 1955م ، 44/2 .

(9) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 161/1. المقَّرِيّ : نَفْح الطِّيب مِنْ غُصْنِ الأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1408هـ - 1988م ، 261/4 .

(10) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 331/3 .

(11) ابن وهبون الأندلسي : شعر ابن وهبون ، ضمن كتاب (شعراء أندلسيون) ، محمود محمد العامودي ، مطبعة المقداد ، غزة ، ط1 ، 1431هـ - 2010م ، ص 84 .

(12) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 87/1 – 88 . ابن بَسَّام : الذَّخِيرَة ، 558/2/2 .

(13) يقصد قول المتنبي : (الطويل)

وَلا كُتْبَ إلاَّ المَشْرَفِيَّةُ عِنْدَهُ وَلا رُسُلٌ إلاَّ الخَمِيسُ العَرَمْرَمُ

- المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 352/3 . محمد بن شريفة : أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة ، ص109 .

(14) محمد بن شريفة : أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة ، ص109 .

(15) المرجع السابق ، ص110 .

(16) المرجع السابق ، ص156 - 157.

(17) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، تحقيق حسين نصار ، مركز تحقيق التراث ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، طبعة ثالثة منقحة ، 1424هـ - 2003م ، 2472/6- 2473 .

(18) أحمد زكي صفوت : جمهرة رسائل العرب ، طبعة مصورة بدار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، عن الطبعة المصرية الأولى ، 1356هـ - 1937م ، 50/4 .

(19) الميداني : مجمع الأمثال ، قَدَّمَ له وعلق عليه نعيم حسين زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1408هـ - 1988م ، 397/1 .

(20) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 65/1 .

(21) عجز بيت لابن الخطيب وصدره : (فِي طَالِعِ النَّحْسِ حُزْتَ رُتْبَتَهَا) . ابن الخطيب : ديوان لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد مفتاح ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، 1989م ، 428/1 .

(22) المقَّريّ : نَفْح الطِّيب ، 339/4.

(23) ابن حمديس : ديوان ابن حمديس ، صححه وقدم له إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1379هـ - 1960م ، ص 365 .

(24) المقَّريّ : نَفْح الطِّيب ، 325/4.

(25) المصدر السابق ، 321/4.

(26) المصدر السابق ، 306/7.

(27) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 270/1 .

(28) المصدر السابق ، 213/4 .

(29) المصدر السابق ، 197/1 .

(30) ابن الخَطِيب : ديوان لسان الدين بن الخطيب ، 622/2 .

(31) ابن زيدون : ديوان ابن زيدون ورسائله ، شرح وتحقيق علي عبد العظيم ، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ، 1957م ، ص132 .

(32) حسين يوسف خريوش : الحاجب المصحفي ؛ حياته وآثاره الأدبية ، حوليات كلية الآداب ، الحولية 19 ، الرسالة 133 ، مجلس النشر العلمي ، جامعة الكويت ، 1419هـ - 1999م ، ص 48.

(33) ابن زيدون : ديوان ابن زيدون ورسائله ، ص263 .

(34) المصدر السابق ، ص280.

(35) المصدر السابق ، ص297.

(36) ابن الأَبَّار : الحُلَّة السِّيَرَاء ، تحقيق حسين مؤنس ، ذخائر العرب (58) ، دار المعارف ، القاهرة، ط2 ، 1985م ، 73/2 .

(37) المُعْتَمِد بن عَبَّاد : ديوان المعتمد بن عباد ؛ ملك إشبيلية ، تحقيق حامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي ، راجعه طه حسين ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ط4 ، 1423هـ - 2002م ، ص 110 .

(38) الحُصْرِيّ القَيرَوَانِيّ : المعشرات واقتراح القريح واجتراح الجريح ، تحقيق محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، ط2 ، ١٩٧٤م ، ص 190 .

(39) ابن سَعِيد : المُغْرِب فِي حُلَى المَغْرِب ، حَقَّقَهُ وعَلَّقَ عليه شوقي ضيف ، سلسلة ذخائر العرب رقم (10) ، دار المعارف ، القاهرة ، ط4 ، 1993م ، 108/2.

(40) ابن الأبّار : الحُلّة ، 78/2.

(41) ابن خفاجة : ديوان ابن خفاجة ، تحقيق السيد مصطفى غازي ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، 1960م ، ص 357 .

(42) المقّريّ : نَفْح الطِّيب ، 188/4.

(43) ابن الخَطِيب : ديوان لسان الدين بن الخطيب ، 444/1 .

(44) ابن فُرْكُون : ديوان ابن فُرْكُون ، تقديم وتعليق محمد بن شريفة ، سلسلة التراث ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، الرباط ، ط1 ، 1407هـ - 1987م ، ص 132 .

(45) عباس محمود العقاد : ابن الرومي ؛ حياته من شعره ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1 ، 2009م ، ص 117 .

(46) عباس محمود العقاد : مطالعات في الكتب والحياة ، دار المعارف ، القاهرة ، ط4 ، 1987م ، ص 135 .

(47) طه حسين : مع المتنبي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط13، 1986م ، ص 172 .

(48) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 59/4- 60.

(49) المصدر السابق ، 377/1.

(50) عبد الحليم حفني : مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1987م ، ص 187 .

(51) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 223/4.

(52) المصدر السابق ، 60/4.

(53) المصدر السابق ، 375/2.

(54) المصدر السابق ، 109/3.

(55) المتنبي : شرح شعر المتنبي ، أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا الزهري الأندلسي المعروف بابن الأفليلي (ت441هـ) ، دراسة وتحقيق مصطفى عليان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط2 ، 1418هـ - 1998م ، 176/2 – 177 . لم ترد هذه القصيدة في ديوان المتنبي المنسوب للعكبري .

(56) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 228/3 .

(57) المصدر السابق ، 302/2.

(58) المصدر السابق ، 289/1.

(59) المصدر السابق ، 314/2.

(60) ابن شُهَيد : ديوان ابن شُهَيد الأندلسيّ ، جمعه وحققه يعقوب زكي ، راجعه محمود علي مكي ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، د . ت ، ص 114.

(61) المصدر السابق ، ص 145.

(62) المصدر السابق ، ص 153 .

(63) ابن حَزْم الأَنْدَلُسيّ : ديوان ابن حزم ، تحقيق صبحي رشاد عبد الكريم ، دار الصحابة للتراث ، طنطا ، ط1 ، 1410هـ - 1990م ، ص 93.

(64) المصدر السابق ، ص 63.

(65) ابن زيدون : ديوان ابن زيدون ورسائله ، ص 291 .

(66) المصدر السابق ، ص 268 .

(67) المصدر السابق ، ص 292 .

(68) المصدر السابق ، ص 313 .

(69) المصدر السابق ، ص 236 .

(70) المصدر السابق ، ص 294 .

(71) المصدر السابق ، ص 605 .

(72) المصدر السابق ، ص 306 .

(73) المصدر السابق ، ص 570 .

(74) المقَّريّ : نَفْح الطِّيب ، 418/3 .

(75) السُّمَيسِر : ديوان السميسر ، ضمن كتاب (شعراء أندلسيون منسيون) ، فوزي عيسى ، من تراثنا الشعري (9) ، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ، الكويت ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ط10 ، 2009م ، ص 263 .

(76) الأعمى التطيليّ : ديوان الأعمى التطيلي ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، 1409هـ - 1989م ، ص9 .

(77) المقَّريّ : نَفْح الطِّيب ، 189/4 .

(78) المصدر السابق ، 564/5 .

(79) ابن الخَطِيب : ديوان لسان الدين بن الخطيب ، 604/2 .

(80) المصدر السابق ، 339/1 - 340.

(81) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 4/ 162.

(82) المصدر السابق ، 4/ 144.

(83) المصدر السابق ، 2/ 303.

(84) المصدر السابق ، 3/ 287.

(85) ابن دَرَّاج القسطليّ : ديوان ابن دَرَّاج القسطليّ ، حققه وعلق عليه وقدم له محمود علي مكي ، منشورات المكتب الإسلامي ، دمشق ، ط1 ، 1381هـ - 1961م ، ص 339.

(86) حسين يوسف خريوش : الحاجب المصحفي ، ص 61 .

(87) ابن زيدون : ديوان ابن زيدون ورسائله ، ص275- 276 .

(88) ابن سَعِيد : المُغْرِب ، 197/2 .

(89) المقَّريّ : نَفْح الطِّيب ، 325/3 .

(90) المصدر السابق ، 573/5.

(91) المصدر السابق ، 592/5 .

(92) المصدر السابق ، 565/5 .

(93) ابن الخَطِيب : ديوان لسان الدين بن الخطيب ، 111/1.

(94) الميداني : مجمع الأمثال ، 411/1 .

(95) المصدر السابق ، 335/2 .

(96) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 4/ 223.

(97) المقَّريّ : نَفْح الطِّيب ، 374/1.

(98) ابن دَرَّاج القسطليّ : ديوان ابن دَرَّاج القسطليّ ، ص 89 .
(99) ابن حَزْم الأَنْدَلُسِيّ : ديوان ابن حزم ، ص 77 .
(100) المصدر السابق ، ص 94 .
(101) ابن زيدون : ديوان ابن زيدون ورسائله ، ص 738 – 739 .
(102) المقَّرِيّ : نَفْح الطِّيب ، 543/1 .
(103) المصدر السابق ، 590/5 .
(104) المصدر السابق ، 343/5 .
(105) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 143/4.
(106) المصدر السابق ، 148/4.
(107) ابن دَرَّاج القسطليّ : ديوان ابن دَرَّاج القسطليّ ، ص 180 .
(108) ابن شُهَيد : ديوان ابن شُهَيد الأندلسيّ ، ص 145 .
(109) المصدر السابق ، ص 144 .
(110) ابن زيدون : ديوان ابن زيدون ورسائله ، ص 257 .
(111) المصدر السابق ، ص 364 .
(112) ابن وهبون الأندلسي : شعر ابن وهبون ، ص 69 .
(113) ابن الأَبَّار: تحفة القادم ، أعاد بناءه وعَلَّقَ عليه إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1406هـ - 1986م ، ص 83 .
(114) المقَّرِيّ : نَفْح الطِّيب ، 368/3 .
(115) الحُمَيديّ : جُذْوَة المُقْتَبِس فِي تاريخ علماء الأَنْدَلُسِ ، تحقق بَشَّار عواد معروف ، محمد بَشَّار عواد ، دار الغرب الإسلامي ، تونس ، ط1 ، 1429هـ - 2008م ، ص 321 .
وغيرُ خافٍ أنه نظر في هذين البيتين إلى قول المتنبي : (الوافر)
يَقُولُ لِيَ الطَّبِيبُ : أَكَلْتَ شَيئًا وَدَاؤُكَ فِي شَرَابِكَ وَالطَّعَامِ
وَمَا فِي طِبِّهِ أَنِّي جَوَادٌ أَضَرَّ بِجِسْمِهِ طُولُ الجَمَامِ
المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 148/4.
(116) ابن بَسَّام : الذَّخِيرَة ، 839/2/3 .
(117) الأعمى التطيليّ : ديوان الأعمى التطيلي ، ص 79.
(118) ابن بَسَّام : الذَّخِيرَة ، 753/2/1.
(119) ابن الكِتَّانيّ الطَّبِيب : التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، 1966م ، ص 276 . لم ترد هذه الأبيات في ديوان ابن الخطيب .
(120) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 39/2 .
(121) ابن زيدون : ديوان ابن زيدون ورسائله ، ص 158 .
(122) المصدر السابق ، ص 163 .
(123) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
المقصود قول المتنبي : (البسيط)
بِمَ التَّعَلُّلُ ؟ لا أَهْلٌ وَلا وَطَنٌ وَلا نَدِيمٌ ، وَلا كَأْسٌ ، وَلا سَكَنُ

المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 233/4 .

(124) المعتمد بن عباد : ديوان المعتمد بن عباد ، ص 100- 101 .

(125) ابن بَسَّام : الذَّخِيرَة ، 740/2/1 .

(126) طه حسين : خصام ونقد ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ، 2014م ، ص143 .

(127) أحمد درويش : دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث ، دار غريب ، القاهرة ، ط1 ، 1998م ، ص 158.

(128) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 15/1.

(129) عباس محمود العقاد : مطالعات في الكتب والحياة ، ص 132 .

(130) محمود محمد شاكر : المتنبي ؛ رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ، مطبعة المدني ، القاهرة ، دار المدني ، جدة ، 1407هـ - 1987م ، ص 160 .

(131) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 140/2.

(132) المصدر السابق ، 3/ 260.

(133) المصدر السابق ، 1/ 15.

(134) المصدر السابق ، 323/1 .

(135) المصدر السابق ، 161/3 .

(136) المصدر السابق ، 371/3.

(137) المصدر السابق ، 268/3.

(138) المصدر السابق ، 268/3.

(139) المصدر السابق ، 268/3.

(140) ابن حَزْم الأَنْدَلُسِيّ : ديوان ابن حزم ، ص 74 .

(141) ابن زيدون : ديوان ابن زيدون ورسائله ، ص 381 - 382 .

(142) ابن الخَطِيب : ديوان لسان الدين بن الخطيب ، 415/1.

(143) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 1/ 324.

(144) المصدر السابق ، 1/ 319.

(145) ابن الأَبَّار : الحُلَّة ، 88/2 - 89 .

(146) المصدر السابق ، 89/2 .

(147) السميسر : ديوان السميسر ، ص 271 .

(148) عباس محمود العقاد : مطالعات في الكتب والحياة ، ص 138 .

(149) وقد أدرج يوسف البديعي هذا البيت ضمن أبيات أُعْجِبَ بها ، تعكس قدرة المتنبي على إرسال الأمثال ، والاستملاء على لسان التجربة في البيت والبيتين فصاعدًا ، وحسن التصرُّف في الحكمة والموعظة وشكوى الدهر ، والدنيا ، والناس .

- يوسف البديعيّ : الصبح المنبي عن حيثية المتنبي عن حيثية المتنبي ، تحقيق مصطفى السقا ، محمد شتا ، عبده زيادة عبده ، سلسلة ذخائر العرب (36) ، دار المعارف ، القاهرة ، 1963م ، ص 65 ، 441- 442. وانظر : المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 375/1 .

وقد نظر ابن حَزْم الأندلسي إلى هذا البيت ، وقال : (الطويل)

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى صَدِيقًا لَهُ مَا مِنْ عَدَاوَتِهِ بُدُّ

- محمد بن شريفة : أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة ، ص155 .

(150)المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 2/ 9.

(151) المصدر السابق ، 373/3.

(152) المصدر السابق ، 91/3 .

(153) المصدر السابق ، 259/3.

(154) المصدر السابق ، 290/1.

(155) المصدر السابق ، 291/1.

(156) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(157) المصدر السابق ، 374/2.

(158) المصدر السابق ، 371/2.

(159) المصدر السابق ، 366/3 - 367.

(160) المصدر السابق ، 271/1.

(161) المصدر السابق ، 101/4 .

(162) المصدر السابق ، 367/3 .

(163) ابن دَرَّاج القسطليّ : ديوان ابن دراج القسطليّ ، ص 366 .

(164) ابن بسام : الذخيرة ، 333/1/3- 334 .

(165) ابن زيدون : ديوان ابن زيدون ورسائله ، ص 258 .

(166) المصدر السابق ، ص 284 .

(167) المصدر السابق ، ص 385.

(168) السُّمَيسِر : ديوان السميسر ، ص 276 .

(169) ابن حمديس : ديوان ابن حمديس ، ص 501 .

(170) المصدر السابق ، ص 473 .

(171) المصدر السابق ، ص 227 .

(172) إميليو غَرْسِيَة غُومِس : مع شعراء الأندلس والمتنبي ، ص 46 .

(173) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 148/4 .

(174) هذا البيت من زيادات شعره التي لم ترد في ديوانه . انظر : يوسف البديعي : الصبح المُنْبِي عن حيثية المتنبي ، ص 105.

(175) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 109/3.

(176) المصدر السابق ، 163/4.

(177) المصدر السابق ، 52/3.

(178) المصدر السابق ، 263/1.

(179) المصدر السابق ، 95/3.

(180) المصدر السابق ، 9/3 -10.

(181) حسين يوسف خريوش : الحاجب المصحفي ، ص 45 .

(182) المصدر السابق ، ص 44 .

(183) ابن الأبّار : الحُلَّة ، 220/1 .
(184) ابن حَزْم الأَنْدَلُسِيّ : ديوان ابن حزم ، ص 88 .
(185) ابن زيدون : ديوان ابن زيدون ورسائله ، ص 254 .
(186) المصدر السابق ، ص 254 - 255 .
(187) السُّمَيسِر : ديوان السميسر ، ص 274.
(188) الأعمى التطيليّ : ديوان الأعمى التطيلي ، ص233 .
(189) ابن حمديس : ديوان ابن حمديس ، ص 28 .
(190) المقَّريّ : نَفْح الطِّيب ، 497/5 .
(191) ابن الخَطِيب : الإحاطة فِي أَخْبَار غَرْنَاطَة ، شرحه وضبطه وقَدَّمَ له يوسف علي طويل ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1424هـ - 2003م ، 183/3.
وقد نظر فيه إلى قول المتنبي : (الطويل)
وَتَعْظُمُ فِي عَينِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا وَتَصْغُرُ فِي عَينِ العَظِيمِ العَظَائِمُ
المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 379/3 .
(192) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 175/3.
(193) المصدر السابق ، 320/1.
(194) المصدر السابق ، 321/1 - 322.
(195) المقَّريّ : نَفْح الطِّيب ، 2/ 265.
(196) المصدر السابق ، 11/4 – 12 .
(197) ابن زيدون : ديوان ابن زيدون ورسائله ، ص296 .
(198) المصدر السابق ، ص401- 402 .
(199) ينظر في هذا البيت إلى قول المتنبي : (الطويل)
يَهُونُ عَلَينَا أَنْ تُصَابَ جُسُومُنَا وَتَسْلَمُ أَعْرَاضٌ لَنَا وَعُقُولُ
المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 109/3 .
(200) المقَّريّ : نَفْح الطِّيب ، 538/5 .
(201) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 224/3 - 225.
(202) المصدر السابق ، 2/ 320.
(203) المصدر السابق ، 1/ 191.
(204) المصدر السابق ، 2/ 61.
(205) المصدر السابق ، 372/3 .
(206) ابن بَسَّام : الذَّخِيرَة ، 450/1/1 .
(207) ابن سَعِيد : المُغْرِب ، 318/1 .
(208) ابن زيدون : ديوان ابن زيدون ورسائله ، ص 703 – 704 .
(209) المصدر السابق ، ص 272 - 273 .
(210) المصدر السابق ، ص382 .
ولكنه كان يرد عليهم بقوله : (السريع)

يَـا مُرْشِدِي جَهْـلاً إلَـى غَيرِهِ أَغْنَى عَنِ المِصْبَاحِ ضَوءُ الصَّبَاحْ

- ابن زيدون : ديوان ابن زيدون ورسائله ، ص 248 .

(211) المصدر السابق ، ص 276 .

(212) ابن الأبار : الحلة السيراء ، 168/2.

(213) المقَّريّ : نَفْح الطِّيب ، 91/4.

(214) ابن حمديس : ديوان ابن حمديس ، ص 38.

(215) المصدر السابق ، ص 14.

(216) المقَّريّ : نَفْح الطِّيب ، 202/4.

(217) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 1/ 374 .

(218) المصدر السابق ، 4/ 159.

(219) المصدر السابق ، 2/ 221.

(220) المصدر السابق ، 4/ 112.

(221) المصدر السابق ، 4/ 39.

(222) المصدر السابق ، 3/ 270.

(223) المصدر السابق ، 4/ 210.

(224) ابن شُهَيد : ديوان ابن شُهَيد الأندلسيّ ، ص 143- 144 .

(225) ابن وهبون الأندلسيّ : شعر ابن وهبون ، ص 88 .

(226) المصدر السابق ، ص69.

وهو يشبه قول المتنبي : (الوافر)

وَلَمَّا صَـارَ وُدُّ النَّـاسِ خِبًّـا جَزَيـتُ عَـلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامِ

المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 144/4 .

(227) ابن خَاقَان : قَلائِد العِقْيَان ومحاسن الأعيان ، حَقَّقَهُ وعَلَّق عليه حسين يوسف خريُوش ، مكتبة المنار ، الأردن ، ط1 ، 1409هـ - 1989م ، 638/2 ، المقَّريّ : نَفْح الطِّيب ، 524/2 .

(228) ابن خفاجة : ديوان ابن خفاجة ، ص 77.

(229) طه حسين : مع المتنبي ، ص 32 .

(230) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 4/ 59.

(231) المصدر السابق ، 4/ 40- 42 .

(232) المصدر السابق ، 4/ 42 .

(233) المصدر السابق ، 4/ 43- 44 .

(234) المصدر السابق ، 4/ 44 .

(235) المصدر السابق ، 4/ 70.

(236) محمود محمد شاكر: المتنبي ، ص 330 .

(237) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 4/ 210.

(238) هذا البيت من زيادات شعره التي لم ترد في ديوانه . انظر : يوسف البديعي : الصُّبْح المُنْبِي عن حيثية المُتَنَبِّي ، ص 105 .

(239) الأعمى التطيليّ : ديوان الأعمى التطيلي ، ص 2 -3 .

(240) أبو إسحاق الإلبيري : ديوان أبي إسحاق الإلبيري ، حققه وشرحه واستدرك فائته محمد رضوان الداية ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان ، دار الفكر ، دمشق ، سورية ، ط1 ، 1411هـ - 1991م ، ص 108 .

(241) السُّمَيسِر : ديوان السميسر ، ص 284 .

(242) ابن بَسَّام : الذَّخِيرَة ، 712/2/2 .

(243) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 1/ 193.

(244) أبو إسحاق الإلبيري : ديوان أبي إسحاق الإلبيري ، ص 92 .

(245) ابن الحَدَّاد الأندلسيّ : ديوان ابن الحَدَّاد الأندلسي ، جمعه وحققه وشرحه وقدم له يوسف علي طويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1410هـ - 1990م ، ص 228- 229 .

(246) ابن وهبون الأندلسي : شعر ابن وهبون ، ص 69 .

(247) ابن بَسَّام : الذَّخِيرَة ، 108/1/3.

(248) ابن حمديس : ديوان ابن حمديس ، ص 15 .

(249) المقَّريّ : نَفْح الطِّيب ، 325/3 .

(250) المصدر السابق ، 564/2 .

(251) المصدر السابق ، 572/2 .

(252) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 223/4 .

(253) المصدر السابق ، 144/2 .

(254) المصدر السابق ، 117/3 .

(255) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(256) ابن الحَدَّاد الأندلسيّ : ديوان ابن الحَدَّاد الأندلسي ، ص 148 .

(257) المقَّريّ : نَفْح الطِّيب ، 324/4 .

(258) تُعَرَّف الصدمة النفسيَّة بأنها : « الاستجابة الناتجة عن خبرة مؤلمة ، تكون خارجة عن تَحَكُّم الشخص ، بحيث إن وسائل الدفاع الأوليَّة تكون غير فاعلة في التفاعل معها » .

Quta, S., Miller. T., El-Masry, M : Mental Health Of Children In War zones, Ontario: center For The Studies Of Children At Risk Canada,2001. P.10.

(259) (الثُّنَائِيَّة) مصطلح يقوم على الربط بين الظواهر المنفصلة والتعالُق بينها ؛ وقد عَرَّفَها المُعْجَم الفلسفيّ بقوله : « الثُّنَائِي من الأشياء ما كان ذا شِقَّينِ ، والثُّنَائِيَّة هي : القول بزوجيَّة المبادئ المُفَسِّرة للكون ، كثنائيَّة الأضداد وتعاقبها ، أو ثنائيَّة الواحد والمادة ، أو ثنائيَّة الواحد وغير المتناهي عند الفيثاغورثيين ، أو ثنائيَّة عالم المُثُل وعالم المحسوسات عند أفلاطون » .

- جميل صليبا : المعجم الفلسفيّ ، دار الكتاب اللبنانيّ ، بيروت ، لبنان ، 1978م ، ص379 .

(260) شاكر عبد الحميد : الفكاهة والضحك ؛ رؤية جديدة ، سلسلة عالم المعرفة (289) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، يناير 2003م ، ص 336 .

(261) حامد عبده الهوَّال : السخرية في أدب المازني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1982م ، ص262 – 263 .

(262) ريتشاردز : العلم والشعر ، ترجمة محمد مصطفى بدوي ، مراجعة سهير القلماوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2001م ، ص 57 .

(263) الميداني : مجمع الأمثال ، 522/1 .

(264) المصدر السابق ، 157/2.

(265) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(266) المصدر السابق ، 204/2.

(267) أبو حيان التوحيدي ومسكويه : الهوامل والشوامل ، تقديم صلاح رسلان ، نشره أحمد أمين والسيد أحمد صقر ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، 2001م ، ص212 .

(268) تمام البيت : (الطويل)

وَلَمَّا رَأَيتُ العَبْدَ لِلحُرّ مَالِكًا أَبِيتُ إبَاءَ الحُرّ مُسْتَرْزِقًا حُرًّا

هذا البيت من زيادات شعره التي لم ترد في ديوانه . انظر : يوسف البديعي : الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ، ص105 .

(269) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 2/ 61.

(270) المصدر السابق ، 175/3.

(271) المصدر السابق ، 22/2.

(272) المصدر السابق ، 270/1.

(273) المصدر السابق ، 233/4.

(274) المصدر السابق ، 36/1.

(275) المصدر السابق ، 163/4.

(276) المصدر السابق ، 30/2 .

كان ابن زيدون يُلِحُّ على أبي الوليد بن جهور في كل مدائحه مُبَيِّنًا له أنه لا يسعى للمال ، بل يَطْلُبُ المَنْصِبَ الشريف ، يقول : (الطويل)

لَعَمْرُكَ مَا لِلمَالِ أَسْعَى ؛ فَإِنَّمَا يَرَى المَالَ أَسْنَى حَظِّهِ الطَّبْعُ الوَغْدُ

وَلَكِنْ لِحَالٍ – إنْ لَبِسْتَ جَمَالَهَا - كَسَوتُكَ ثَوبَ النُّصْحِ أَعْلامُهُ الحَمْدُ

ابن زيدون : ديوان ابن زيدون ورسائله ، ص 365 .

(277) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 190/1 .

(278) المصدر السابق ، 345/3 .

(279) لم يكن المعتضد بن عباد يطيق سماع أصوات الناقدينَ والمعارضينَ له ، وكان مُسْرفًا في العقوبة ، متعطشًا إلى سفك الدماء ، حريصًا على تكبيل حريَّة الطبقات الأَرِسْتُقْرَاطِيَّة الراقيَّة التي ظلت باقية في إِشْبِيلِيَة بكل السُّبُل ، وإبادة كُلّ مَنْ يُشَكِّل خطرًا على سياسته .

(280) حسين يوسف خريوش : الحاجب المصحفي ، ص 44 .

(281) ابن شُهَيد : ديوان ابن شُهَيد الأندلسيّ ، ص 144.

(282) ابن بَسَّام : الذَّخِيرَة ، 93/1/2 .

(283) ابن زيدون : ديوان ابن زيدون ورسائله ، ص 290 .

(284) ابن الحَدَّاد الأندلسيّ : ديوان ابن الحداد الأندلسي ، ص 146 .

(285) ابن الأبار : الحُلَّة ، 76/2 .

(286) النُّبَاهِيّ : تَارِيخ قُضَاة الأنْدَلُس ، المُسَمَّى المَرْقبَة العُلْيَا فِيمَنْ يِسْتَحِقُ القَضَاءَ والفُتْيَا ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط5 ، 1403هـ - 1983م ، ص 100 .

(287) ابن الزَّقَّاق البَلَنْسِيّ : ديوان ابن الزَّقَاق البَلَنْسِيّ ، تحقيق عفيفة محمود ديراني ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، 1409هـ - 1989م ، ص 231 – 232 .

(288) المقَّرِيّ : نَفْح الطِّيب ، 543/1 .

(289) المصدر السابق ، 182/5 – 183 .

(290) أبو حيان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة ، صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين ، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، د. ت ، 49/2 .

(291) الميداني : مجمع الأمثال ، 81/2 .

(292) المصدر السابق ، 8/2 .

(293) انظر : المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 108/4 .

(294) المصدر السابق ، 320/1 .

(295) المصدر السابق ، 22/2- 23.

(296) المصدر السابق ، 2/ 114.

(297) المصدر السابق ، 287/3.

وتتفق وجهة نظر شعراء الأندلس مع رأي المُتَنَبّي ، يقول أبو الرَّبِيع سُلَيمَان بن مَهْرَان السَّرَقُسْطِيّ : (الكامل)

المَالُ زَينٌ ، وَالحَيَاةُ شَهِيَّةٌ وَالجُودُ يُفْقِرُ ، وَالشَّجَاعَةُ تَقْتُلُ

- المقَّرِيّ : نَفْح الطِّيب ، 567/3 .

ويقول أبو زكريا يحيى بن محمد الأرْكُشيّ : (البسيط)

لا حَبَّذَا المَالُ وَالإفْضَالُ يُتْلِفُهُ وَالبُخْلُ يَحْمِيهِ ، وَالأَقْدَارُ تُعْطِيهِ

- المقَّرِيّ : نَفْح الطِّيب ، 63/4 .

(298) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 237/4.

(299) ابن عبد رَبِّه الأندلسيّ : ديوان ابن عبد ربه ، ص 171 .

(300) المعتمد بن عباد : ديوان المعتمد بن عباد ، ص 108 .

(301) المصدر السابق ، ص 91 - 92 .

(302) السِّلَفيّ : أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسِّلَفِيّ ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1399هـ - 1979م ، ص75 .

(303) الحُمَيدِيّ : جُذْوَة المُقْتَبِس ، ص 321 .

(304) ابن خَاقَان : قَلائِد العِقْيَان ، 410/1 . ابن سَعِيد : المُغْرِب ، 281/2 .

(305) ابن بَسَّام : الذَّخِيرَة ، 861/2/3 .

(306) المقَّرِيّ : نَفْح الطِّيب ،339/4 .

(307) ابن خَاقَان : قلائد العقيان ، 820/2 .

(308) الأعمى التطيليّ : ديوان الأعمى التطيلي ، ص 174 .

(309) المقَّرِيّ : نَفْح الطِّيب ، 201/5 - 202 .

(310) المصدر السابق ، 543/1 .

(311) صفوان التجيبيّ المرسيّ : زَاد المُسَافِر وغُرَّة مُحَيَّا الأدب السَّافِر ، نشر عبد القادر محداد ، ط بيروت ، 1358هـ - 1939م ، ص90 .

(312) المقَّريّ : نَفْح الطِّيب ، 364/5 .

(313) أبو حَيَّان التوحيديّ ومسكويه : الهوامل والشوامل ، ص 210 .

(314) المصدر السابق ، ص 211 .

(315) عباس محمود العقاد : مطالعات في الكتب والحياة ، ص 150 .

(316) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 4/ 124.

(317) المصدر السابق ، 209/4 .

(318) المصدر السابق ، 2/ 269.

(319) ابن شُهَيد : ديوان ابن شُهَيد الأندلسيّ ، ص 154 .

(320) ابن زيدون : ديوان ابن زيدون ورسائله ، ص 263 .

(321) ابن الحَدَّاد الأندلسيّ : ديوان ابن الحَدَّاد الأندلسي ، ص 289 – 290 .

(322) المقَّريّ : نَفْح الطِّيب ، 345/4 .

(323) المصدر السابق ، 543/1 .

(324) ابن الخَطِيب : الإحَاطَة ، 284/3 .

(325) المقَّريّ : نَفْح الطِّيب ، 498/5 .

(326) المصدر السابق ، 559/5 – 560 .

(327) الميداني : مجمع الأمثال ، 296/1.

(328) المصدر السابق ، 390/1.

(329) المصدر السابق ، 393/1.

(330) المصدر السابق ، 430/1- 431.

(331) المصدر السابق ، 132/2.

(332) المصدر السابق ، 204/2 .

(333) المصدر السابق ، 388/2 .

(334) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، 320/1 .

(335) المصدر السابق ، 4/ 108 .

(336) ابن شُهَيد : ديوان ابن شُهَيد الأندلسيّ ، ص 144 .

(337) ابن بَسَّام : الذَّخِيرَة ، 448/1/1 .

(338) ابن وهبون الأندلسي : شعر ابن وهبون ، ص 69 .

(339) الأعمى التطيليّ : ديوان الأعمى التطيلي ، ص90 .

(340) ابن حمديس : ديوان ابن حمديس ، ص 268 .

(341) المقَّريّ : نَفْح الطِّيب ، 356/3 – 357 .

(342) المصدر السابق ، 491/2 .

(343) مرج الكحل : ديوان ابن مرج الكحل ، ضمن كتاب (من ديوان الشعر العربي : ديوان أبي مِحْجَن الثَّقَفِي ، ديوان صفوان التجيبي ، ديوان ابن مرج الكحل) ، جمع وتحقيق ودراسة محمَّد سَالمان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط1 ، 2007م ، ص 257 .

(344) المقَّريّ : نَفْح الطِّيب ، 123/2.

(345) ابن الخَطِيب : الإحاطة ، 284/3 .

(346) المقَّريّ : نَفْح الطِّيب ، 5/ 563 .

(347) المصدر السابق ، 382/5 .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

*** ابن الأَبَّار– أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القُضَاعيّ البلنسيّ (ت658هـ) :**

1– الحُلَّة السِّيَرَاء ، تحقيق حسين مؤنس ، ذخائر العرب (58) ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، 1985م .

2- تحفة القادم ، أعاد بناءه وعَلَّقَ عليه إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1406هـ - 1986م .

*** ابن بَسَّام الشَّنْتَرِينيّ - أبو الحسن عليّ (ت542هـ):**

3- الذَّخِيرَة في محاسن أهل الجَزِيرَة ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط1 ، 1399هـ - 1979م .

*** ابن الحَدَّاد الأندلسيّ - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان القَيسِيّ (ت480هـ) :**

4- ديوان ابن الحداد الأندلسي ، جمعه وحققه وشرحه وقدم له يوسف علي طويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1410هـ - 1990م .

*** ابن حَزْم الأَنْدَلُسِيّ - أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت456هـ):**

5- ديوان ابن حزم ، تحقيق صبحي رشاد عبد الكريم ، دار الصحابة للتراث ، طنطا ، ط1 ، 1410هـ - 1990م .

*** ابن حمديس الصقلي- أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس (ت 527هـ):**

6- ديوان ابن حمديس ، صححه وقدم له إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1379هـ - 1960م .

*** ابن خَاقَان - أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسيّ الإشبيليّ (ت535هـ) :**

7- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان ، حَقَّقَهُ وعَلَّق عليه حسين يوسف خريُوش ، مكتبة المنار ، الأردن ، ط1 ، 1409هـ - 1989م .

*** ابن الخَطِيب - لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني (ت776هـ):**

8- الإحَاطَة فِي أَخْبَار غَرْنَاطَة ، شرحه وضبطه وقَدَّمَ له يوسف علي طويل ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1424هـ - 2003م .

9- ديوان لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد مفتاح ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، 1989م .

*** ابن خفاجة - أبو إسحاق إبراهيم (ت533هـ) :**

10- ديوان ابن خفاجة ، تحقيق السيد مصطفى غازي ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، 1960م .

*** ابن دِحْية الكَلْبِيّ - أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن محمد (ت633هـ):**

11- المُطْرِب مِنْ أشعار أهل المغرب ، تحقيق إبراهيم الإبياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي ، راجعه طه حسين ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، 1954م .

*** ابن دَرَّاج القسطلي - أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج (ت421هـ) :**

12- ديوان ابن دَرَّاج القسطليّ ، حققه وعلق عليه وقدم له محمود علي مكي ، منشورات المكتب الإسلامي ، دمشق ، ط1 ، 1381هـ - 1961م .

*** ابن الروميّ- أبو الحسن عليّ بن العباس بن جُرَيج (ت283هـ):**

13- ديوان ابن الرومي ، تحقيق حسين نصار ، مركز تحقيق التراث ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، طبعة ثالثة منقحة ، 1424هـ - 2003م .

*** ابن الزَّقَّاق البَلَنْسِيّ - أبو الحسن عليّ بن عطية بن مُطَرِّف (ت530هـ) :**

14- ديوان ابن الزَّقَاق البَلَنْسِيّ ، تحقيق عفيفة محمود ديراني ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، 1409هـ - 1989م .

*** ابن زيدون– أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن غالب (ت463هـ):**
15– ديوان ابن زيدون ورسائله ، شرح وتحقيق علي عبد العظيم ، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ، 1957م .
*** ابن سَعِيد المَغْرِبِيّ – أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك (685هـ) :**
16– المُغْرِب فِي حُلَى المَغْرِب ، حَقَّقَهُ وعَلَّقَ عليه شوقي ضيف ، سلسلة ذخائر العرب رقم(10) ، دار المعارف ، القاهرة ، ط4 ، 1993م .
*** ابن شُهَيد – أبو عامر (ت426هـ) :**
17– ديوان ابن شُهَيد الأندلسيّ ، جمعه وحققه يعقوب زكي ، راجعه محمود علي مكي ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، د . ت .
*** ابن فُزْكُون – أبو الحسين بن أحمد بن سليمان بن هشام القرشي (ت ق 9هـ) :**
18– ديوان ابن فُرْكُون ، تقديم وتعليق محمد بن شريفة ، سلسلة التراث ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، الرباط ، ط1 ، 1407هـ – 1987م .
*** ابن الكِتَّانيّ الطَّبِيب – أبو عبد الله محمد بن الحسن (ت420هـ) :**
19– التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، 1966م .
*** ابن وهبون الأندلسيّ – أبو محمد عبد الجليل (ت483هـ) :**
20– شعر ابن وهبون ؛ ضمن كتاب (شعراء أندلسيون) ، محمود محمد العامودي ، مطبعة المقداد ، غزة ، ط1 ، 1431هـ – 2010م .
*** الأعمى التطيليّ – أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة (ت525هـ):**
21– ديوان الأعمى التطيلي ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، 1409هـ – 1989م .
*** أبو إسحاق الإلبيري – إبراهيم بن مسعود بن سعد التُّجيبي (ت 460هـ) :**
22– ديوان أبي إسحاق الإلبيري ، حققه وشرحه واستدرك فائته محمد رضوان الداية ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان ، دار الفكر ، دمشق ، سورية ، ط1 ، 1411هـ – 1991م .
*** الحُصْرِيّ القَيرَوَانِيّ – أبو الحسن عليّ بن الغني (ت488هـ) :**
23– المعشرات واقتراح القريح واجتراح الجريح ، تحقيق محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، ط2 ، ١٩٧٤م .
*** الحُمَيدِي – أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فَتُّوح بن عبد الله الأزدي (ت488هـ) :**
24– جُذْوَة المُقْتَبِسِ فِي تاريخ علماء الأَنْدَلُسِ ، تحقق بَشَّار عواد معروف ، محمد بَشَّار عواد ، دار الغرب الإسلامي ، تونس ، ط1 ، 1429هـ – 2008م .
*** أبو حَيَّان التوحيديّ – عَلِيّ بن مُحَمَّد بن العَبَّاس (ت414هـ) :**
25– الإمتاع والمؤانسة ، صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين ، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، د. ت .
*** أبو حيان التوحيدي ومسكويه :**
26– الهوامل والشوامل ، تقديم صلاح رسلان ، نشره أحمد أمين والسيد أحمد صقر ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، 2001م .

* **السِّلَفيّ – أبو طَاهِر صَدْر الدِّين أحمد بن محمد بن إبراهيم سِلَفه (ت576هـ) :**
27– أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسِّلَفِيّ ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1399هـ – 1979م .
* **السُّمَيسِر – أبُو القَاسِم خَلَف بن فَرَج الإلْبِيرِيّ (ت بعد 488هـ) :**
28– ديوان السميسر ، ضمن كتاب (شعراء أندلسيون منسيون) ، فوزي عيسى ، من تراثنا الشعري (9) ، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ، الكويت ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ط10 ، 2009م .
* **صفوان التجيبيّ المرسيّ – أبو بحر صفوان بن إدريس (ت598هـ) :**
29– زَاد المُسَافِر وغُرَّة مُحَيَّا الأدب السَّافِر ، نشر عبد القادر محداد ، ط بيروت ، 1358هـ – 1939م .
* **المُتَنَبِّي – أبو الطيب أحمد بن الحسين (ت354هـ):**
30– ديوان أبي الطيب المتنبي ؛ بشرح أبي البقاء العكبري ، المسمى بالتبيان في شرح الديوان ، ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، د . ت .
31– شرح شعر المُتَنَبِّي ، أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا الزهري الأندلسي المعروف بابن الأفليلي (ت441هـ) ، دراسة وتحقيق مصطفى عليان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط2 ، 1418هـ– 1998م .
* **مرج الكحل – أبو عبد الله محمد بن إدريس بن علي (ت634هـ) :**
32– ديوان ابن مرج الكحل ، ضمن كتاب (من ديوان الشعر العربي : ديوان أبي مِحْجَن الثَّقَفِي ، ديوان صفوان التجيبي ، ديوان ابن مرج الكحل) ، جمع وتحقيق ودراسة محمَّد سَالمان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط1 ، 2007م .
* **المعتمد بن عباد – أبو القاسم محمد بن عباد (ت488هـ):**
33– ديوان المعتمد بن عباد ؛ ملك إشبيلية ، تحقيق حامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي ، راجعه طه حسين ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ط4 ، 1423هـ – 2002م .
* **المقَّرِيّ التِّلْمِسَانِيّ – أبو العباس أحمد بن محمد (ت1041هـ) :**
34– نَفْح الطِّيب مِنْ غُصْنِ الأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1408هـ – 1988م .
* **الميداني – أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري (ت518هـ):**
35– مجمع الأمثال ، قَدَّمَ له وعلق عليه نعيم حسين زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1408هـ – 1988م .
* **النُّبَاهِيّ المَالقيّ الأندلسيّ – أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن (ت بعد 793هـ) :**
36– تَارِيخ قُضَاة الأَنْدَلُس ، المُسَمَّى المَرْقبَة العُلْيَا فِيمَنْ يِسْتَحِقُ القَضَاءَ والفُتْيَا ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط5 ، 1403هـ – 1983م .
* **يوسف البديعي (ت1073هـ) :**

37- الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ، تحقيق مصطفى السقا ، محمد شتا ، عبده زيادة عبده ، سلسلة ذخائر العرب (36) ، دار المعارف ، القاهرة ، 1963م .

ثانيًا : المراجع العربية :

*** أحمد درويش :**

38- دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث ، دار غريب ، القاهرة ، ط1 ، 1998م .

*** أحمد زكي صفوت :**

39- جمهرة رسائل العرب ، طبعة مصورة بدار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، عن الطبعة المصرية الأولى ، 1356هـ - 1937م .

*** إسماعيل باشا البغدادي :**

40- هدية العارفين ، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، لبنان،1955م .

*** أيمن محمد ميدان :**

41- الحوار الأدبيّ بين المشرق والأندلس ؛ المتنبي والمعري نموذجين ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ط1 ، 2004م .

*** جميل صليبا :**

42- المعجم الفلسفيّ ، دار الكتاب اللبنانيّ ، بيروت ، لبنان ، 1978م .

*** حامد عبده الهوَّال :**

43- السخرية في أدب المازنيّ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1982م .

*** شاكر عبد الحميد :**

44- الفكاهة والضحك ؛ رؤية جديدة ، سلسلة عالم المعرفة (289) ، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، يناير 2003م .

*** طه حسين :**

45- مع المتنبي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط13، 1986م .

46- خصام ونقد ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ، 2014م .

*** عباس محمود العقاد :**

47- مطالعات في الكتب والحياة ، دار المعارف ، القاهرة ، ط4 ، 1987م .

48- ابن الرومي ؛ حياته من شعره ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1 ، 2009م .

*** عبد الحليم حفني :**

49- مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1987م .

*** محمد بن شريفة :**

50- أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1986م .

* **محمود محمد شاكر :**
51- المتنبي ؛ رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ، مطبعة المدني ، القاهرة ، دار المدني ، جدة ، 1407هـ - 1987م .

ثالثًا : المراجع الأجنبية المترجمة :

* **ريتشاردز:**
52- العلم والشعر ، ترجمة محمد مصطفى بدوى ، مراجعة سهير القلماوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2001م .
* **غُومِس ، إميليو غَرْسِيَة :**
53- مع شعراء الأندلس والمتنبي ؛ سيرٌ ودراسات ، نقله إلى العربية الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف ، ط5 ، 1412هـ - 1992م .

رابعًا : الدوريات :

* **حسين يوسف خريوش :**
54- الحاجب المصحفي ؛ حياته وآثاره الأدبية ، حوليات كلية الآداب ، الحولية 19 ، الرسالة 133 ، مجلس النشر العلمي ، جامعة الكويت ، 1419هـ - 1999م .

خامسًا : المراجع الأجنبية :

55 - Quta, S., Miller. T., El-Masry, M : Mental Health Of Children In War zones, Ontario: center For The Studies Of Children At Risk Canada,2001.

A Summary of the Search: The effect of agony of injustice between Al Motanaby and Andalisian poets

This search is meant to observe the effect of the agony of injustice on Al Motanaby and his contemporary Andalisian poets and subsequent ones as a prominent feature that appeared clearly in them.

It also aims at studying the reason for this abhorring feeling of injustice which overwhelmed the generous and virtuous man that makes him fluctuates over unbearable ambers . Al Motanaby experienced this feeling and tasted its bitterness . He described this feeling repeatedly in his poetry as well as other Andalisian poets tasted it like Gaafer Al Moshafy , Ibn Darag Al Kastaly , Abu Amer Ibn Shaheed , Ibn Hazm , Ibn Zaidoun , Al Moatamid Ibn Abaad , Ibn Al Khateeb and others who turned from luxury and richness into poverty and need . They knew closely the agony of injustice and expressed this feeling .

The poems which Andalusian poets wrote to describe the agony of injustice were similar to Al Motanaby ' poetry following his steps and in most cases emulating him .

The importance of this search comes from the big number and the variety of theses texts which were not studied or analyzed before in order to show their styles and what questions they arouse in different fields .

This search inclusively , asserts the idea of the effectiveness and effectiveness between the Eastern and Andalisian poetry and goes in its orbit .

This search observes a number of similarities between the two kinds of poetry . These similarities which cannot happen coincidentally and it assures . meanwhile . the amount of openness of the Andalisian poetry on the Eastern one and its benefits from it .

This search contains a preface and three studies and a conclusion . The preface detects the effect of Al Motanaby on the Andalisian poetry . The first study tackled the reasons for the agony of injustice and the second study treated The effect of agony of injustice . The third one showed Binary oppositions in the poetry of the agony of injustice .

The reading of the literal texts are numerous and various according to nature of the reader . his trends of thought cultures and accordingly the meanings are also various and numerous .

I have used the Analytical descriptive approach to explain the taxts and explain the aesthetical values in them .